النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى باللغة العربية

أغاثا كريستي

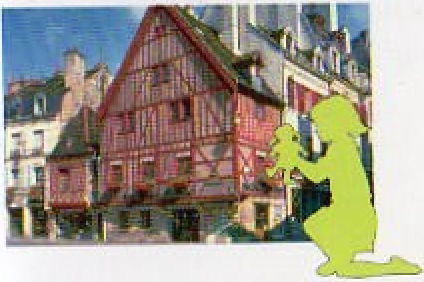


القَضَايا الأخيرَة للآنِسَة مَارْبل

مع فصل تعريفي بالآنسة ماربل (خاص بالطبعة العربية)

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

Agatha Christie



Miss Marple's Final Cases



دار الراتب الجامعية

الأجيال للترجمة والنشر

AJYAL Publishers

القضايا الأخيرة للآنسة ماربل

تضم هذه المجموعة ست قصص قصيرة من بطولة الآنسة ماربل وقصتين غريبتين لا تظهر الآنسة ماربل فيهما. وقد نُشرت أكثر هذه القصص في الثلاثينيات في بعض المجلات، ولكنها لم تصدر في كتاب إلا بعد وفاة مؤلفتها بثلاث سنوات.

وقد أضفنا إلى الكتاب تعريفاً بالآنسة ماربل وقريتها التي عاشت فيها، وهذا التعريف خاص بالطبعة العربية، قصدنا به تعريف قرائنا بهذه الشخصية العجيبة التي أحبوها وتابعوا قصصها من قديم.

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!

ISBN9953-30-019-4
9 789953 300191

سعر البيع في السعودية ١٢ ريالاً
في بقية أنحاء العالم 3.2 دولاراً

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال القاصّة الفذّة، أغاثا كريستي، تساءل الجميع بدهشة واستغراب: "لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟".

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال؛ إذ أن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص، وإن بدت غيرَ ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً، أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني؛ أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، وبالتالي لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يزعم أنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المقصود: أهو لتقليص حجم القصص وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يملّ من قراءة قصة طويلة؟ ولكن مَن قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيّبَ عنه بعض التفصيلات الهامة، كما فوّتَ عليه الاستمتاع بكثيرٍ من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه (كما أسلفنا) الربح العاجل. وهذه الأخطاء (وكثير منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحَبْكَة الأحداث وعقدة القصة.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية، وجاءت على غير نَسَقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسمَي بَطَلَيْ أغاثا الرئيسين: «هيركيول بوارو» و«الكابتن

هيستِنْغز» قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات، وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّتْ أسوأ صفةٍ ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون..» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطعُ كاملةٌ منها مطموسةً مستعصية على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون..» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها مَن يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبير عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثير من المتأدبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون..» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها؛ فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القرّاء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين -لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها- قد طمعوا في مزيد من

البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرَف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تترجَم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقّعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق نحواً من سبع سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفذّنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجَم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجَع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاءة ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة تمت المراجعة الكاملة والدقيقة لكل نص مترجَم؛ لغوياً، ونحوياً، وإملائياً. مع العناية بالتفقير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العمل واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفّذ هذا العمل لدى أفضل

مراكز الصف، وبُذل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطع الكتاب بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراءٍ لميولِ كثيرٍ من القارئين وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجَعة بعد المراجَعة للنصّ النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاءَ الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عملٍ ممكنٍ يطيقه الجهد البشري.

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب التراث أو نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالَبٌ -إذا عمل- بأن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقيّ ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجَم- في النص المُعرَّب. وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو -بالذات- ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفّقنا؟

نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خير حَكَم.

الناشر

* * *

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجَمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجْنا اعتماد الفصاحة بلا تكلّف؛ فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسْنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «الشُّرْبة» (بضم الشين بلا واو بعدها اسماً للحساء) و«السَّلَطة» و«الكُشْك»، ومثل قولهم: «سرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا لبعض المفردات مما يُخلَط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع؛ «فالمستشفى» مذكّر يُؤنَّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، و«الشرطة» جمعُ مذكرٍ وليس مفرداً مؤنثاً كما يظن عامة الناس؛ في الوسيط: "الشرطة هم حَفَظة الأمن في البلاد، الواحد شُرْطيٌّ وشُرَطيٌّ". ومثل هذا الخلط -فيما يجري على أقلام الكُتّاب وألسنة الناس- أيضاً كثير.

وكذلك تنبّهْنا إلى بعض ما درج على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحّ وسُمع عن العرب في هذا المقام؛ مثل قولهم: «خجول» والصواب: «خَجِل»، وقولهم: «مندهش» والصواب: «دَهِش» أو «مدهوش»، وقولهم: «هامّ» (للأمر الشديد وما يدعو إلى اليقظة والتدبر) والصواب: «مُهِمّ»، ومثل ذلك كثير.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَن يكتب إذن بالألف؛ لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها؛ فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلّا» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثير من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: "وهو أقرب إلى

الصواب". أما في «مئات» فقد اتفقوا على كتابتها بغير ألف بلا خلاف. وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، إلخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا –في الطبع– على أن تُثبَت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل، وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كلتيهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا –أيضاً– على إثبات تنوين الفتح مطلقاً منعاً لالتباسه بالألف (كقولهم: "وجد مالا يفرح"، فهي بلا تنوين تفيد أنه لم يجد شيئاً يفرح، وبالتنوين تفيد أنه وجد من المال ما يفرح، فتأمّل الفرق). وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس؛ كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلَي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالَي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشَدّة –خصوصاً– في غير المواضع المدرَكة سليقةً؛ إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها) فقد أوليناها كل عناية ممكنة؛ إذ هي –كما سمّاها بعض

الأدباء– علاماتٌ للتفهيم، بها يتم المعنى ويَضِحُ المقصود. واتّبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصول التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيِّم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّبَعة في عالَم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً. فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية؛ إذ ليس من المتيسّر –في الصف والطباعة– توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غيرُ متفقٍ عليه ولا هو معتمَد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة. أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) والذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأمّلتَ مَخرَج هذا الحرف ومَخرَج الجيم لوجدتَهما متباعدَيْن تباعداً بيّناً، ولوجدتَ أن ما يقاربه في لغتنا مَخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتَب –فيما نُقل قديماً عن الفارسية– كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتّفَقْ عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون –اليوم– هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيْناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه؛ وانظر كيف كتبوا أكثر ما عرّبوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«الغابون» و«بلغاريا» و«غرينتش»، وأمثال ذلك كثير كثير. وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه

القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. (واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبة إليها: «إنكليز» و«إنكليزية» لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا).

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرققة (كما في: cat)، والألف المفخّمة (كما في: car)، والألف الممالة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالة المرققة (كما في: bone)، والواو الممالة المفخّمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعَي الياء فكتبناها ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في «Hastings»، صاحب بوارو الشهير في كثير من القصص، كتبناه «هيستِنْغز»).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب؛ فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلّفة في سطور

تُعتبر أغاثا كريستي أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب ما طُبع منها بليونَيْ (ألفَيْ مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠ وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرضٍ ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "ولكنني لا أظنني قادرة على ذلك"، فقالت الأم: "بلى، تستطيعين. جرّبي وسترَين". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشَر قطّ. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز»، التي ظهر

فيها بوارو للمرة الأولى، فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب، وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِح مُحبٍّ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلّتْ -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تدم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية والظروف الصعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرضةً تساعد جرحى الحرب، وفي هذا المستشفى عملت بتحضير وتركيب الأدوية وتعرفت إلى السموم وتراكيبها مما كان له أثر بالغ الفائدة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، في عام ١٩١٤، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت على النيل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في العراق». وحينما سافرتْ على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها. تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: "لا بدّ أن ينتصر الخير"، و"الجريمة لا تفيد".

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» في قصتها المنشورة الأولى «القضية الغامضة في ستايلز» عام ١٩٢٠، واستمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قُتل» أخيراً في عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهمٍ عميقٍ للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكةٍ واسعةٍ من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومانسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٣٠، أي لأكثر من سبعين عاماً! أما سيرة حياتها، التي كتبتها قبيل وفاتها، فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجَم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

مقدمة

بقلم: محرر الطبعة العربية

هذه المجموعة من القصص القصيرة ظهرت بهذا الاسم بطبعتها الإنكليزية للمرة الأولى في عام ١٩٧٩؛ أي بعد نحو ثلاث سنوات من وفاة مؤلفتها أغاثا كريستي. وهي تضم مجموعة من القصص القصيرة التي نشرتها أغاثا في وقت مبكر في بعض المجلات الأسبوعية في إنكلترا، في الفترة بين عام ١٩٣٤ وعام ١٩٥٩، وإن كنا لا نعرف تاريخ نشر كل منها بشكل دقيق.

وقد عمد الناشر الإنكليزي إلى جمعها بهذا الشكل وإصدارها بهذا الاسم لتكون في متناول قرّاء أغاثا كريستي الذين لا سبيل إليهم للوصول إلى تلك المجلات القديمة التي نُشرت القصص فيها. ولعل اسم: «قضايا الآنسة ماربل الأخيرة» قد وُضع للدلالة على أن هذه هي المرة الأخيرة التي سيرى فيها القرّاء قصصاً لم يقرؤوها للمؤلفة فيما هو منشور من مجموعات قصصية من قبل، وإن يكن التعبير غير صحيح من حيث أن الإيحاء المباشر لكلمة «الأخيرة» سيقود القارئ إلى الظن بأن الآنسة ماربل ستموت في

آخر هذه القصص (كما حدث لبوارو في روايته الأخيرة: «الستارة») وهذا غير صحيح؛ فهي قد كُتبت ونُشرت للمرة الأولى في الثلاثينيات والأربعينيات، وقد جاءت بعدها قصص قصيرة وروايات طويلة عديدة من بطولة الآنسة ماربل.

أما الملاحظة الأخرى فهي أن هذه المجموعة قد ضمت ثماني قصص قصيرة، ورغم أن عنوان الكتاب هو «القضايا الأخيرة للآنسة ماربل» إلا أننا نجد أن الآنسة ماربل تظهر في ست من هذه القصص فقط، أما آخر قصتين فليستا من بطولتها، بل ولا هما من النوع العادي من قصص وروايات ألغاز الجريمة الذي تكتبه أغاثا، وإنما من نوع آخر من «الألغاز الغريبة» مما كتبته في بعض الأحيان ولكنها لم تكثر منه (ومن هذا النوع أكثر القصص القصيرة في مجموعة «كلب الموت وقصص أخرى» التي ستصدر ترجمتها العربية مع صدور هذا الكتاب إن شاء الله).

إلا أننا لم نغير ترتيب هذه القصص أو عنوانها وأبقيناها كما صدرت في طبعتها الإنكليزية، وقد زدنا عليها مقدمة طويلة عن الآنسة ماربل لم تتضمنها الطبعة الإنكليزية، ونظن أن القارئ الذي تابع روايات وقصص الآنسة ماربل من قديم سيجد فيها متعة كبيرة، وكذلك القارئ الذي يتعرف على هذه العانس العجوز الفريدة للمرة الأولى.

* * *

فصل تمهيدي خاص بالطبعة العربية

الآنسة ماربل
حياتها وعصرها

ملاحظة من محرر الطبعة العربية: لا بد لي من أن أشير -من باب الأمانة العلمية- إلى أن المعلومات التي تضمنها هذا الفصل قد أُخذت كلها (بتصرف طفيف) من كتابٍ صدر في عام ١٩٨٥ بعنوان: «الآنسة ماربل، حياتها وأحداث عصرها» للمؤلفة الكندية آن هارت، وهي كاتبة لها عدد من القصص القصيرة والمسرحيات، ولها كتاب آخر عن الشخصية الأشهر التي ابتدعتها أغاثا كريستي عنوانه: «هيركيول بوارو، حياته وأحداث عصره».

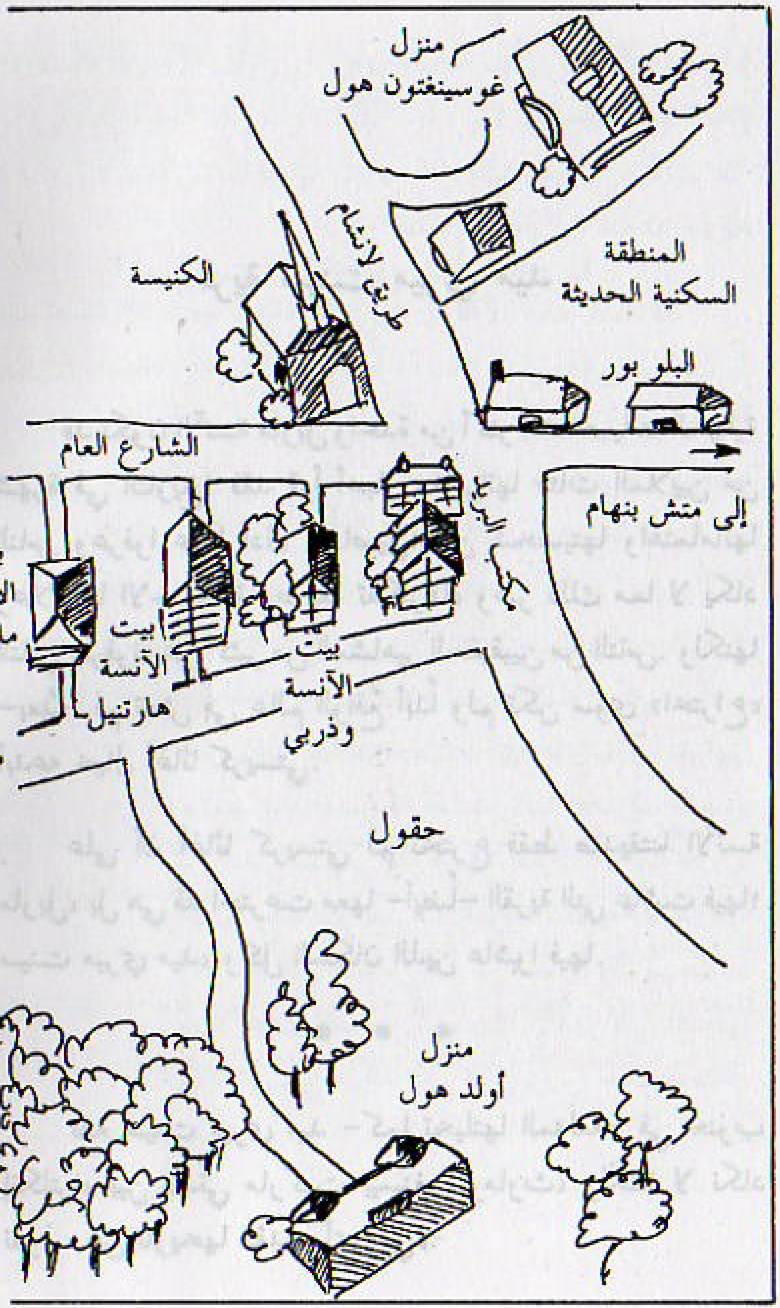
قرية سينت ميري ميد

قد تكون الآنسة ماربل واحدة من أكثر الشخصيات الخيالية شهرة في التاريخ؛ فقد قرأ أخبار مغامراتها مئات الملايين من الناس وعرفوا عنها أدق التفاصيل: عن شخصيتها واهتماماتها وعلاقاتها الاجتماعية وطريقة تفكيرها، وغير ذلك مما لا يكاد الناس يعرفونه عن كثير من المشاهير الحقيقيين من الناس. ولكنها -بعدُ- لم تعش في عالم الواقع أبداً ولم تكن سوى «اختراع» أبدعه خيال أغاثا كريستي.

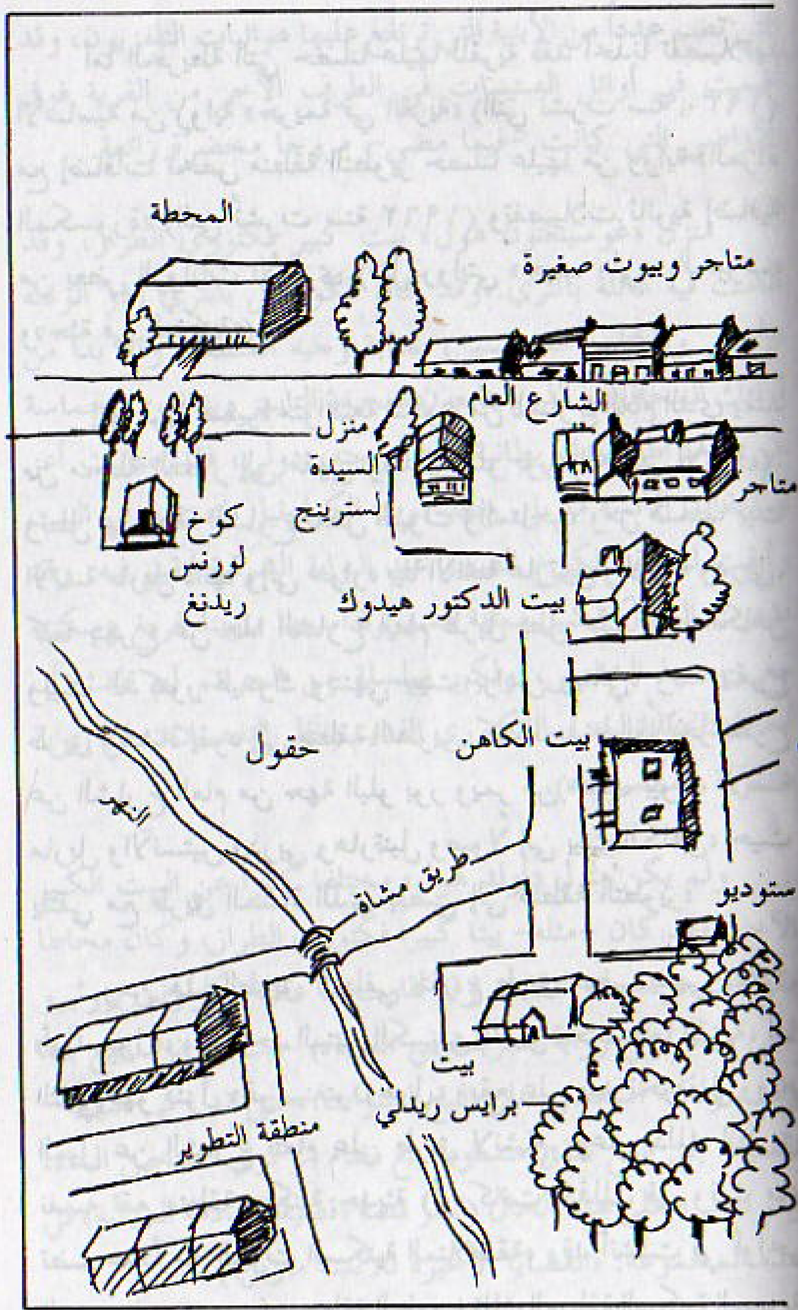
على أن أغاثا كريستي لم تخترع فقط صديقتنا الآنسة ماربل، بل هي قد اخترعت معها -أيضاً- القرية التي عاشت فيها؛ سينت ميري ميد، وكل السكان الذين عاشوا فيها.

* * *

تقع سينت ميري ميد -كما تخيلتها المؤلفة- في جنوب إنكلترا، بين بلدتَي ماركيت بيسنغ ولوماوث، ولكننا لا نكاد نعرف عن تاريخها القديم أي شيء.



منزل
غوسينغتون هول
المنطقة
السكنية الحديثة
الكنيسة
طريق لانشام
البلو بور
الشارع العام
إلى متش بنهام
بيت
الآنسة
ماربل
بيت
الآنسة
هارتنيل
بيت
الآنسة
وذربي
طريق
حقول
منزل
أولد هول



المحطة
متاجر وبيوت صغيرة
الشارع العام
منزل
السيدة
لسترينج
متاجر
كوخ
لورنس
ريدنغ
بيت الدكتور هيدوك
بيت الكاهن
حقول
النهر
طريق مشاة
ستوديو
بيت
برايس ريدلي
منطقة التطوير

أما الخريطة التي حصلنا عليها للقرية فقد أخذنا تفصيلاتها الأساسية من رواية «جريمة في القرية» (التي نُشرت سنة ١٩٣٠) مع إضافات تخص منطقة التطوير حصلنا عليها من رواية «المرآة المكسورة» (التي نُشرت سنة ١٩٦٢) وتفصيلات ثانوية إضافية من بعض الروايات الأخرى (مثل روايتي «جيب مليء بالحبوب» و«جثة في المكتبة»).

إنها قرية صغيرة متواضعة تتكون من الشارع العام الذي يمتد من محطة القطار إلى مقهى وفندق البلو بور (الخنزير الأزرق). وتطلّ على هذا الشارع بعض البيوت والمتاجر، ومن ضمنها بيت الآنسة ماربل ذاتها وإلى جواره بيتا الآنسة هارتنيل والآنسة وذربي. كما يتفرع عن هذا الشارع العام طريق يطل عليه بيت الكاهن وبيت الدكتور هيدوك وينتهي ببيت برايس ريدلي، ومنه يتفرع طريق للمشاة يقود إلى منطقة التطوير. كما نجد طريقاً آخر يتفرع عن الشارع العام من جهة البلو بور ويمر من خلف بيوت الآنسة ماربل والآنستين وذربي وهارتنيل وصولاً إلى بيت الكاهن، حيث يلتقي مع طريق المشاة الذي يفضي إلى منطقة التطوير.

ومن هذا الطريق الخلفي يتفرع طريق صغير ينتهي بمنزل «أولد هول»، وهو أحد البيتين الكبيرين اللذين تحتضنهما القرية، أما الثاني فهو منزل «غوسينغتون هول» ويقع على بعد نحو ميل وربع الميل عن الشارع العام على طريق لانشام. وعلى ذلك الطريق نفسه تقع منطقة سكنية حديثة (أو كانت كذلك في وقت ما) تضم عدداً من البيوت السكنية المتلاصقة، وقد أُنشئت في أواخر العشرينيات. وهي غير منطقة التطوير؛ تلك المنطقة السكنية العصرية

التي تضم عدداً من الأبنية التي ترتفع عليها هوائيات التلفزيون، وقد أُقيمت في أوائل الستينيات في الطرف الآخر من القرية فوق الأراضي التي كانت -فيما مضى- مروجاً مخضرّة رائعة.

منزل «غوسينغتون هول» بيت كبير فكتوري الطراز، وقد أقامت فيه عائلة بانتري. وقد كان الكولونيل بانتري (ذو الوجه الأحمر والكتفين العريضتين) بمثابة وجيه المنطقة، وقد بدا من أولئك المحافظين الذين يتابعون صحيفة التايمز ويدافعون بحماسة عن الإمبراطورية البريطانية! أما زوجته، دولي، فقد صارت أعز صديقات الآنسة ماربل. وبعد موت الكولونيل باعت دولي البيت وأبقت لنفسها الكوخ الصغير عند البوابة الشرقية لتقيم فيه. وقد اشترت المنزلَ الكبير ممثلةٌ مشهورة اسمها مارينا غريغ وسكنته مع زوجها الخامس، ولكن سلسلة من الجرائم لم تلبث أن أحاطت بهذا المنزل الفكتوري القديم (انظر التفصيلات في رواية «المرآة المكسورة»).

ولم يكن منزل «أولد هول» مختلفاً كثيراً عن البيت الكبير الآخر، فقد كان -مثله- بيتاً كبيراً فكتوري الطراز، وكان محاطاً بالغابات من جهاته الثلاث. وقد أقامت فيه عائلة الكولونيل بروثيرو حتى مقتله (في رواية «جريمة في القرية») حيث عُرض للبيع بعد ذلك، ولكنه استعصى على البيع لسنوات، حتى تم -في النهاية- تقسيمه إلى أربع شقق متساوية مع نظام مركزي لتسخين الماء، وتم تأجيره على هذه الحال (انظر قصة «قضية الخادمة المثالية» في هذه المجموعة: «القضايا الأخيرة للآنسة ماربل»).

على أن بيت الآنسة ماربل يبقى أهم بيت في القرية بالنسبة لنا، وهو يطل -كما رأينا قبل قليل- على الشارع العام للقرية فيما يمكن لنا أن نسميه موقعاً إستراتيجياً يمكّن صاحبته من القيام بالمراقبة الدقيقة لكل ما يجري في القرية. والواقع أن هذا الدور لم تستأثر به الآنسة ماربل وحدها من دون جارتيها اللتين تشغلان البيتين المجاورين: الآنسة هارتنيل والآنسة وذربي، وكل منهما عجوز عانس مثلها، حتى لنجد مبرراً لهذا الاسم الذي نجده قد أُطلق على العجائز الثلاث معاً في بعض الروايات: «الحرس القديم لقرية سينت ميري ميد». أما الكولونيل ميلتشيت (الذي صار واحداً من أشد المعجبين بفطنة وذكاء الآنسة ماربل) فقد قال ذات مرة عن هذه المجموعة من السيدات: "هؤلاء العجائز الثرثارات... وجبة الشاي وحديث الفضائح و«القيل والقال» يومياً في الرابعة والنصف من عصر كل يوم"، ثم يضيف في موقع آخر واصفاً القرية بأنها: "ذلك الجزء من العالم الذي يزدحم بالنساء العجائز أكثر من أي مكان آخر في الدنيا"!

وعلى الطرف الآخر من الشارع مقابل هذه البيوت الثلاثة تقع الكنيسة التي تعتبر نقطة تجمّع لأفراد القرية. أما القس نفسه فقد كان بيته بعيداً عن الكنيسة بعض الشيء ويطل على الشارع الصغير الذي يتفرع عن الشارع العام من أمام بيت السيدة ليسترينج. وقد أقام في هذا البيت (بيت القس) عدد من القسس الذين تناوبوا على القرية خلال الأعوام الخمسين التي عرفناها أثناءها، غير أن أشهر هؤلاء -بلا منازع- هو ليونارد كليمنت (الذي روى لنا قصة «جريمة في القرية») والذي اشتهر بشروده

الدائم وبمشاكسات زوجته الشابة المخلصة غريزيلدا.

وفي هذا الشارع الصغير نفسه يقع بيت الدكتور هيدوك، وهو شخص له أهميته في حياة القرية عموماً وفي حياة الآنسة ماربل بشكل خاص، وقد وصفه القس كليمنت مرة بقوله: "إن هيدوك هو أفضل شخص أعرفه"، أما الكولونيل ميلتشيت فقال عنه أنه "شخص يوثق به، وأي شيء يقوله يمكن الاطمئنان إلى صحته".

وفي نهاية الشارع يقع منزل السيدة برايس ريدلي، وهي أرملة غنية متسلطة، ولم تكن بأقل أهمية من العوانس الثلاث في نشاط «نادي القيل والقال»! أما في أوله فيقع بيت السيدة ليسترينج المسمى ليتل غيتس (أي: البوابات الصغيرة)؛ وهو بيت صغير كان -في الماضي- ملكاً لجنرال متقاعد من الذين أمضوا جزءاً كبيراً من حياتهم العسكرية في الهند.

بقي لدينا اثنان من السكان المهمين في القرية؛ وهما المحامي ومدير البنك. أما محامي القرية فقد كان -لوقت طويل- السيد بيثيريك (الذي كان رجلاً ضئيلاً يضع نظارتين اعتاد النظر من فوقهما وليس من خلفهما!)، وقد خلفه ابنه، السيد بيثيريك الصغير، بعد وفاته. وأما البنك فقد عرفنا له عدداً من المديرين على مر السنين؛ مثل السيد هودغسون (الذي سافر في رحلة بحرية ثم تزوج فتاة بعمر ابنته لا يعرف أحد من أين جاءت!)، والسيد إيد (وهو محافظ جداً، ولكن يبدو أنه مغرم بالمال بشكل فظيع!)، والسيد إيميت (الذي تزوج فتاة من طبقة مختلفة لم تنجح أبداً في

التأقلم مع زوجات رجال المال الآخرين من أصدقاء زوجها).

وقد نزل بالقرية بعض الغرباء بين وقت وآخر، وكانوا يثيرون -دائماً- شهية «حرس القرية القديم» للتحري والبحث، وكانوا مادة دسمة في «نادي القيل والقال» السابق ذكره في معظم الأحيان. فمن هؤلاء الغرباء عالم الآثار الذي جاء إلى القرية للبحث عن آثار مزعومة في الأراضي والغابات الواقعة وراء منزل أولد هول (في رواية «جريمة في القرية»)، ومثله الشاب الذي يشتغل بالرسم، لورنس ردينغ، والسيدة الغامضة، السيدة ليسترينج (وكلاهما يظهران في الرواية ذاتها). ومن هؤلاء الغرباء أختان من العوانس سكنتا شقة في منزل أولد هول بعد تقسيمه إلى شقق صغيرة متساوية (في قصة «قضية الخادمة المثالية» في هذه المجموعة من القصص القصيرة) والسيدة سبينلو التي جاءت للعيش في قرية سينت ميري ميد فوقع لها حادث سنكتشف تفاصيله في قصة «جريمة قتل بالمتر» في هذه المجموعة.

* * *

وعلى الجهة الأخرى من الشارع العام (وهي الجهة التي تقابل بيت الآنسة ماربل) تقع مجموعة من المتاجر الصغيرة.

أول هذه المتاجر هو محل بيع الأسماك، وقد عمل فيه في خدمة التوصيل إلى المنازل -في السنوات الطويلة التي عرفنا القرية خلالها- مجموعة من الشبان كان لهم اسم واحد دائماً، وهو «فريد»؛ ولكننا نعلم أن هذا الاسم قد حمله أكثر من شخص

واحد، مثل فريد جاكسون (في «جريمة في القرية») وفريد تايلر (في «إعلان عن جريمة»)، وبعد ذلك بسنوات نجد شخصاً آخر بنفس الاسم يكون سبباً في ابتعاد خادمة الآنسة ماربل، غلاديس، عن القرية (في رواية: «جيب مليء بالحبوب»).

المحل التالي هو دكان اللحام، السيد ميردوخ، وقد دارت حوله إشاعات كثيرة في بعض الأوقات، ولكن كان الرأي الغالب أنه هو نفسه يشجع انتشار الشائعات عن دكانه.

بعد ذلك نجد المخبز الذي يملكه السيد غولدن، وقد كانت له ابنة طموحة اسمها جيسي، تركت القرية لتعمل مربية أطفال في لندن، ولم تلبث أن تزوجت ضابطاً من أولئك الضباط الذين عادوا من الهند.

ثم نجد دكان البقال، السيد بارنز، الذي كان الدكان المفضل للسيدات العجائز، وخاصة للآنسة ماربل؛ إذ أنه قد حافظ على شكله ولم يدخل عليه أي تحسين أو تطوير على مدى ثلاثين عاماً.

وأخيراً هناك مجموعة من المحلات الصغيرة التي كانت الآنسة ماربل تتردد عليها وتستفيد من خدماتها؛ مثل دكان بيع الصوف الذي تديره السيدة كري، ودكان الأجواخ الذي تخيط فيه الآنسة ماربل ستائر بيتها، ومحل تزيين الشعر الذي تديره السيدة جيمسون والذي تقص فيه الآنسة ماربل شعرها، وأخيراً الخياطة التي تقيم فوق مكتب البريد، الآنسة بوليت، والتي سنقابلها

في إحدى القصص القصيرة في هذه المجموعة.

وبالإضافة إلى هذه المجموعة من المتاجر الصغيرة التي تقدم كل الخدمات اللازمة للقرية توجد في سينت ميري ميد خدمة مهمة، وهي سيارات «إنش» للأجرة. وقد جاء هذا الاسم من المؤسسة التي أنشأها السيد إنش في زمن قديم لنقل الركاب بالأجرة، حين كانت الخدمة تُقدَّم بعربات الخيل (قبل اختراع السيارات وانتشارها). ومنذ ذلك الحين بقي اسم «إنش» مرادفاً لكلمة «سيارة الأجرة» بالنسبة لمجموعة السيدات العجائز في القرية، وهو اسم نجده يتردد في بعض الروايات (مثل رواية «المرآة المكسورة»).

أما مكتب البريد فيقع على تقاطع الطريق مقابل الكنيسة، وقد كان وصول الحافلة القادمة من بلدة متش بنهام في الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر كل يوم إلى مكتب البريد واحداً من الأحداث اليومية المهمة في قرية سينت ميري ميد.

وعلى الطرف الآخر من التقاطع ذاته كان يوجد فندق ومقهى القرية الوحيد، البلو بور، وقد ملكته أولاً عائلة بكنل، ثم عائلة إموت، وكلا العائلتين عانت من بعض المتاعب العائلية، ولا سيما العائلة الثانية التي غرقت ابنتها روز في النهر الذي يمر من خلف الطاحونة (في قصة «الموت غرقاً» في مجموعة «ثلاثة عشر لغزاً»). وقد علمنا أن الكابتن ميلتشيت كان يجد في البلو بور مكاناً ملائماً لوجبة جيدة في سينت ميري ميد في الأوقات التي كان يضطر فيها للبقاء في القرية بسبب بعض الجرائم.

والآن نقطع الشارع العام إلى نهايته الأبعد لنصل إلى محطة القطار على الطرف الآخر من القرية، ومن هذه المحطة تنطلق القطارات إلى متش بنهام المجاورة ثم إلى لندن، وقد كانت تغادر القرية في الصباح الباكر أو في الثانية عشرة والربع من بعد الظهر، أما رحلة العودة المفضلة فكانت تلك التي تصل في السادسة وخمسين دقيقة مساء.

* * *

هذه هي بنية القرية الأساسية، وهي بنية تقليدية تشترك فيها كثير من القرى الإنكليزية الصغيرة، ولا نكاد نجد تغيراً جذرياً فيها على مر السنين. فبالرغم من الشكوى الدائمة التي نسمعها من الآنسة ماربل: "لم تعد قرية سينت ميري ميد المكان الذي عرفناه من قديم..."، إلا أن التغيرات الحقيقية لا تكاد تُلمس. نعم، لقد صار السكان أكبر سناً، ولكن المجموعة الأصلية منهم بقيت هي ذاتها، مع أقل القليل من التغيير؛ فقد توفيت الآنسة وذربي -مثلاً- وسكن بيتها مدير البنك الجديد. والدكتور هيدوك قد تقدم به العمر ولكن الآنسة ماربل ما زالت تستدعيه لعلاجها كلما احتاجت طبيباً ولا تثق بطبيب سواه. ومصففة الشعر، السيدة جيمسون، قد أقدمت على تطوير ثوري لمجاراة تغيرات العصر فوضعت على دكانها لوحة كُتب عليها: «مصففة الشعر ديانا»، ولكن المحل في داخله لم يتغير أبداً.

بل إن معدل وقوع الجرائم في قرية سينت ميري ميد لم يتغير على مر السنين كذلك؛ فخلال نحو أربعين سنة وقعت فيها ست

عشرة جريمة، منها خمس بالسم، واثنتان بإطلاق النار من مسدس، واثنتان بالغرق، واثنتان بالخنق، وخمس بوسائل غير معلنة أو غير معروفة. وبالإضافة إلى هذه الجرائم عرفت القرية محاولات فاشلة للقتل بالسم أو بتهشيم الرأس، وخمسة حوادث سطو مسلح، وسلسلتين من أعمال الابتزاز، وثماني جرائم اختلاس، وجنحاً واعتداءات أخرى متفرقة عديدة.

وبعد ذلك كله يقول رايموند وست، ابن أخت الآنسة ماربل، واصفاً قرية سينت ميري ميد: "إنها كالمستنقع الراكد"، فتجيبه الآنسة ماربل قائلة: "ولكن لا شيء أكثر ضجة وامتلاء بالحياة من نقطة ماء من مستنقع راكد إذا نظرت إليها تحت ميكروسكوب!".

* * *

حياة الآنسة ماربل

"لقد وُلدت الآنسة ماربل وهي في نحو السبعين من عمرها، وهو سن غير موفق أبداً (كما هي الحال مع بوارو) لأنها كانت ستعيش معي لسنوات طويلة طويلة".

هذا ما كتبته أغاثا كريستي عن الآنسة ماربل في كتاب ذكرياتها، ولكن من أين استوحت أغاثا ملامح هذه الشخصية؟

تجيب هي نفسها -في موضع آخر من ذكرياتها- عن هذا السؤال: "الآنسة ماربل تشبه جدتي وصواحبها العجائز اللائي كنت أقابلهن في بعض القرى حيث كنت أذهب للإقامة والزيارة وأنا طفلة صغيرة، ولكنها ليست نسخة مطابقة لجدتي على أية حال؛ فهي أصعب إرضاء بالتأكيد! على أن الذي تشتركان فيه أن كلاً منهما كانت ذات شخصية مرحة محبوبة، وأن كلاً منهما تتوقع دائماً «أسوأ ما في الطبيعة البشرية». لقد كانت جدتي كذلك دائماً، والغريب (وربما المفزع أيضاً) أنها كانت دائما على صواب!".

وربما استوحت أغاثا كريستي شخصية الآنسة ماربل من شخصية سابقة لها، وهي الآنسة كارولين أخت الدكتور شيبرد (والتي رأيناها في «مقتل روجر أكرويد»، الرواية التي حققت الشهرة المبكرة لأغاثا كريستي والتي نُشرت قبل أربع سنوات من أول ظهور علني للآنسة ماربل). وهي شخصية ذات سمت خاص نراه من خلال وصف أخيها، الدكتور شيبرد، الذي قال عنها: "إن شعار عائلة النمس -كما يقول السيد كيلنج- هو: «اذهب وابحث»، ولئن تعيّن على كارولين أن تتخذ لنفسها شعاراً يمثلها فإنني أرى أن يكون صورة نمس متأهب يقف على قدميه ومخالب يديه في الهواء، ويمكن للمرء حذف الكلمة الأولى من الشعار حيث تستطيع كارولين أن تجد الأشياء وهي جالسة في بيتها مطمئنة. لا أعرف كيف تقوم بذلك، لكن هذا ما يحدث. وأشكّ في أن الخدم والباعة يشكّلون طاقم استخباراتها، وهي عندما تخرج من البيت لا تخرج لتجمع المعلومات ولكن لتنشرها، وهي خبيرة مذهلة في هذا المجال أيضاً".

* * *

أفراد العائلة

لم تخبرنا الآنسة ماربل بالكثير عن أمها وأبيها، سوى أننا نمر بذكر عابر لهما وأيضاً لجدتها أحياناً هنا أو هناك، فقد حصل -مثلاً- أن عاد أبوها من باريس ذات مرة وقد اشترى بعض التحف البرونزية من معرضها الكبير. وقد علمنا أن أمها وجدّتها زارتا باريس كذلك: "ذهبنا لشرب الشاي في فندق الأليزيه،

ونظرت جدتي حولها ملياً ثم قالت فجأة: كلارا... أظن أنني الوحيدة التي تضع على رأسها هذه القلنسوة المضحكة (وهي قبعة ذات خيط يُربَط تحت الذقن تشبه تلك التي تضعها البنات الصغيرات)! وقد كانت فعلاً كذلك، وما أن عدنا من باريس حتى حزمت كل ما تملكه من هذا النوع من القبعات وتخلصت منها جميعاً".

وقد كان لأمها وجدّتها دور في تلقينها الكثير من الأفكار والمثل التي حملتها في حياتها من بعد، مثل أن "السيدة الحقيقية لا تظهر عليها مشاعر الصَدمة أو المفاجأة أمام الناس"، و"هي تتماسك أمام الناس وتظهر بالمظهر اللائق مهما تكن حقيقة مشاعرها ونفسيتها"، كما أن السيدة الحقيقية هي تلك التي "تعرف واجباتها ولا تقصر في أدائها أبداً".

بعد ذلك تحدثنا الآنسة ماربل عن المناسبات التي كانت تجمع أفراد الأسرة الكبيرة؛ وهكذا نتعرف إلى عمتها الكبرى فاني، وقد أخبرت الآنسة ماربل ذات مرة وهي في السادسة عشرة من عمرها أن "الصغار **يحسبون** أن الكبار مغفلون، أما الكبار فإنهم **يعلمون** أن الصغار كذلك!". كما نتعرف إلى عمتها الأخرى هيلين التي "وصلت وهي تضع على رأسها قلنسوة... ربما لأنها لم تذهب إلى باريس قط!". وكذلك نتعرف إلى عمة لا نعرف اسمها ولكن ما يميزها أنها قد نجت من خمسة حوادث تحطمت فيها سفن كانت على متنها. وأخيراً نتعرف على تلك العمة (التي لا نعرف اسمها أيضاً) والتي كانت تملك «حاسة شم» خارقة "تدرك بها متى يتحدث الناس بالأكاذيب!".

كما تتعرف إلى بعض أعمامها: العم الكبير توماس، الأدميرال المتقاعد الذي يعيش في منزل أنيق في ريتشموند. والعم هنري، ذلك الذي عرفنا أنه "ذو مقدرة غير عادية على التحكم بنفسه" وأنه "كان يخبئ مبالغ من المال وراء بعض الكتب في مكتبته".

* * *

الطفولة والشباب

على الرغم من أن الآنسة ماربل قد ولدت في روايات أغاثا كريستي في سن يتراوح بين الخامسة والستين والسبعين، إلا أننا قد حصلنا على بعض المعلومات عن طفولتها المبكرة من إشارات متناثرة في عدد من الروايات. فقد كانت ذات ذاكرة قوية حتى لتتذكر لون ورق الجدران في غرفة الحضانة، وقد تم تبديل هذا الورق وهي في الثالثة من عمرها (كما تقول). وقد شاركتها غرفة الحضانة هذه أختٌ لها، وتلقت الفتاتان كلتاهما تعليماً جيداً بمستوى تلك الأيام.

وحين كانت في الرابعة عشرة تلقت منحة عظيمة حين سُمح لها بمرافقة عمها توماس وعمتها هيلين إلى لندن، حيث أقاموا في فندق بيرترام. وقد بقيت ذكريات تلك الرحلة في خيال الآنسة ماربل لسنوات طويلة بعد ذلك، وكانت تتذكرها -على الدوام- على أنها "أعظم عطلة تمتعت بها قط".

وفي نحو السادسة عشرة أُرسلت الآنسة ماربل إلى مدرسة داخلية في فلورنسا، وهناك التقت بأختين أميركيتين اسمهما روث

وكاري لويز، وقد جمعتها بهما صداقة استمرت إلى آخر العمر، حتى أن روث قد استعانت بها بعد خمسين سنة لعلاج مشكلة مع أختها كاري لويز (انظر رواية «خداع المرايا»).

والآنسة ماربل لم تتزوج أبداً، ولكنها عرفت في شبابها شاباً كادت تتزوج به، وقد تذكرته ذات يوم: "حين ماربل... الشابة الممتلئة بالحيوية. لقد كانت سخيفة في بعض الأوقات! ذلك الشاب اللطيف... ماذا كان اسمه؟ يا إلهي! حتى اسمه لا تكاد تتذكره الآن. لقد كانت أمها حكيمة حين قاومت ذلك الميل بكل قوتها؛ فلقد قابلته بعد سنوات فوجدته شاباً فظيعاً فاشلاً. أما في الوقت الذي حالت أمها بينهما فقد غرقت في الأسى حتى لتبلل وسادتها بالدموع ليلة بعد ليلة لمدة أسبوع على الأقل". ومرة أخرى تعرفت في إحدى الحفلات إلى شاب بدا لطيفاً، ولكنها لم تلبث أن وجدته "غبياً كسولاً، بل في الغاية القصوى من البلادة والغباء".

* * *

السنوات اللاحقة

لقد أشارت الآنسة ماربل غير مرة -وهي في السبعينيات والثمانينيات من عمرها- إلى طفولتها المبكرة، ولكنها لم تكد أبداً تذكر شيئاً عن السنوات التي تلت ذلك وحتى تقدمها في السن. ولعلنا نفهم من جملة عابرة قالتها في إحدى المناسبات أنها قد قامت على رعاية والديها المسنَّين وتمريضهما في آخر

عمرهما: "بسبب الخبرة الطويلة في التمريض كانت الآنسة ماربل تشد –بشكل عفوي وتلقائي– ملاءة السرير جيداً وتطويها تحت الفرشة". فهل كانت تلك «الخبرة الطويلة في التمريض» مع والديها؟ ربما.

وهكذا نقفز مع الآنسة ماربل من طفولتها إلى الوقت الذي بقيت فيه عجوزاً مضى كل من تعرفه من الناس. وذات يوم تعترف لشخص يعاني من الوحدة: "نعم؛ أعرف ما تعنيه... حين يبقى المرء وحيداً بعد رحيل آخر من يشاركه الذكريات. إن لي الآن أبناء وبنات أخت ولي أصدقاء ظرفاء، ولكن أياً منهم لا ينتمي إلى الأيام القديمة! لقد بت وحيدة منذ بعض الوقت...".

هذه هي الآنسة ماربل؛ عجوز في نحو السبعين من عمرها، وقد مات أبواها منذ زمن طويل، وكذلك أعمامها وعماتها، وهي تعيش في بيت فكتوري لطيف (لعلها اشترته بمال تركه لها أبوها الراحل) في قرية سينت ميري ميد الهادئة.

إنها العشرينيات، أو لعلها الثلاثينيات، وهي على وشك البدء بمغامرات التحري والبحث عن الجرائم!

* * *

سجل الآنسة ماربل

أول ظهور نعرفه للآنسة ماربل كان في رواية «جريمة في القرية» في سنة ١٩٣٠، أما آخر ظهور لها ففي رواية «انتقام العدالة» سنة ١٩٧١. وهكذا صحبنا الآنسة ماربل في تحرياتها ومغامراتها لمدة واحد وأربعين عاماً.

لقد قدمت لنا رواية «جريمة في القرية» الآنسة ماربل بالصورة التي عرفناها بها من بعد، وكذلك قدمت لنا القريةَ التي عاشت فيها، سينت ميري ميد، وعدداً كبيراً من الناس الذين عاشوا في تلك القرية. ومن هنا تكتسب هذه الرواية أهمية خاصة بالنسبة لمحبي الآنسة ماربل وقرّاء قصصها.

ولعل الرواية التالية في السياق التاريخي هي «جثة في المكتبة» (التي نُشرت عام ١٩٤٢). وهي لم تصدر بعد «جريمة في القرية» مباشرة ولكنها تبدو كذلك في تسلسل الأحداث؛ فقد انتهت تلك الأخيرة وغريزيلدا تخبر زوجها، الكاهن كليمنت، أنها حامل، وفي «جثة في المكتبة» نجد وليدها وقد بدأ يحبو على الأرض؛

مما يدلنا على أن نحو سنة كانت قد انقضت منذ عُثر على جثة رجل قتيل في بيت الكاهن حين عُثر -هذه المرة- على جثة في غرفة المكتبة بمنزل الكولونيل بانتري. وقد اعتبرت أغاثا بداية هذه الرواية أكثر بدايات رواياتها نجاحاً.

وفي وقت لاحق من الثلاثينيات تأتي رواية «الإصبع المتحرك» (وقد نشرت عام ١٩٤٣)، وهي لم تقع في سينت ميري ميد بل في قرية متخيَّلة أخرى اسمها لايمستوك. وهي رواية تمضي ثلاثة أرباعها قبل ظهور الآنسة ماربل التي لا تلبث أن تحل المعضلة وتعثر على القاتل في الوقت المناسب تماماً. لقد أحبت أغاثا هذه الرواية وقالت عنها في ذكرياتها بعد نشرها بوقت طويل: "لقد أحببت هذه الرواية فعلاً. إنه لامتحان صعب لأية رواية أن يعيد المرء قراءتها بعد كتابتها بسبع عشرة سنة؛ فذوق المرء ورأيه في تغير مستمر، وبعض ما يكتبه لا يصمد في امتحان الزمان وبعضه ينجح. وهذه الرواية مما نجح في الامتحان".

أما رواية «الجريمة النائمة» فقد نُشرت في عام ١٩٧٦، أي في السنة التي ماتت فيها أغاثا كريستي. وقد اشتهرت على أنها الأخيرة من مغامرات الآنسة ماربل، ولكن هذا غير صحيح من حيث تاريخ كتابتها؛ فلقد كتبت أغاثا هذه الرواية (والرواية الأخرى: «الستارة: قضية بوارو الأخيرة» التي مات فيها بوارو) خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. وكما أخبرتنا في مذكراتها: "كان ذلك من باب الاحتياط خشية موتي في الحرب؛ فقد بدا موتي متوقعاً تماماً بسبب عملي في لندن التي استهدفتها الغارات معظم الوقت". وقد قُدِّر لهاتين الروايتين أن

«تناما» في أدراج أغاثا كريستي لأكثر من ثلاثين عاماً.

* * *

لقد شاركت أغاثا كريستي نفسها في الحرب متطوعة للعمل الميداني في المستشفيات. أما بطلتها، الآنسة ماربل، فقد اختفت عن الأنظار خلال تلك الفترة لتعود بالظهور في عام ١٩٥٠ في الرواية التي نُشرت في تلك السنة «إعلان عن جريمة» والتي تدور أحداثها في عام ١٩٤٨. وبعد ذلك ظهرت في «خداع المرايا» (المنشورة عام ١٩٥٢)، ثم في رواية «جيب مليء بالحبوب» في السنة التالية. وبعد ذلك بسنتين، في عام ١٩٥٥، عانت الآنسة ماربل من إصابتها بمرض ذات الرئة، مما استدعى أن تعتني بها ممرضة قديرة اسمها لوسي آيلسبارو، وبعد ذلك بسنتين استعانت الآنسة ماربل بهذه الممرضة نفسها لمساعدتها في حل لغز الجثة المختفية في «قطار الرابعة وخمسين دقيقة من محطة بادنغتون»، وهي الرواية المنشورة في عام ١٩٥٧.

بعد ذلك نجد الآنسة ماربل وهي تزداد تقدماً في السن وتحتاج إلى بعض الترويح بين وقت وآخر، وهكذا تقع أحداث ثلاث من رواياتها الأخيرة بعيداً عن القرية المعروفة. فهي متعبة ومريضة في الفترة التي تقع فيها أحداث «المرآة المكسورة» (المنشورة عام ١٩٦٢)، وهذا قد استدعى تدخل ابن أختها، الروائي المشهور ريموند ويست، ليعيّن لها خادمة في البداية ثم ليحملها على القيام ببعض الإجازات لترويح عن نفسها بعد ذلك. ولكن الإثارة تلاحقها أنى ارتحلت، فنجدها منشغلة بالجرائم

والألغاز في منطقة الكاريبي («لغز البحر الكاريبي»، ١٩٦٤)، وفي الفندق الفخم بمدينة لندن («في فندق بيرترام»، ١٩٦٥)، وأخيراً في رحلة عبر إنكلترا («انتقام العدالة»، ١٩٧١)؛ وهي أكثر مغامرات الآنسة ماربل ترويعاً وكآبة.

* * *

مسرد بمغامرات الآنسة ماربل (الروايات الطويلة) حسب تسلسل صدورها

جريمة في القرية	١٩٣٠
ثلاثة عشر لغزا	١٩٣٢
جثة في المكتبة	١٩٤٢
الإصبع المتحرك	١٩٤٣
إعلان عن جريمة	١٩٥٠
خداع المرايا	١٩٥٢
جيب مليء بالحبوب	١٩٥٣
قطار ٤,٥٠ من بادنغتون	١٩٥٧
المرآة المكسورة	١٩٦٢
لغز البحر الكاريبي	١٩٦٤
في فندق بيرترام	١٩٦٥
انتقام العدالة	١٩٧١
الجريمة النائمة	١٩٧٦

* * *

مزحة غريبة

قالت جين هيلر وهي تكمل تعريف ضيوفها ببعضهم البعض: وهذه هي الآنسة ماربل!

وكونها ممثلة فقد كانت تستطيع أن تعطي لكلامها المعنى الذي تريد، وكان واضحاً أن عبارتها تلك كانت قمة التشويق، أو الخاتمة الرائعة! كانت نبرة صوتها مزيجاً من الرهبة والاحترام والزهو في آن واحد.

كان الغريب في الأمر أن من تمّ تقديمها للضيوف بكل هذا الفخر لم تكن إلاّ عجوزاً رقيقة يبدو عليها الميل للقيل والقال، ولذلك ظهر عدم التصديق وشيء من خيبة الأمل في عيون الشاب والفتاة اللذين سعت جين لتعريفهما بها. كانا شابين جميلين: الفتاة (وتدعى تشارميان ستراود) نحيلة سمراء، والرجل (ويدعى إدوارد روسيتر) أشقر الشعر، لطيف وعملاق.

قالت تشارميان وهي تلهث قليلاً: آه! إننا مسروران جداً بلقائك.

ولكن الشك كان بادياً في عينيها. نظرت إلى جين هيلر نظرة تساؤل سريعة فقالت جين رداً على نظرتها: "إنها رائعة تماماً يا عزيزتي... اتركي كل شيء لها. لقد أخبرتك أنني سأحضرها

إلى هنا وقد فعلت". ثم أضافت تخاطب الآنسة ماربل: مستحلّين المشكلة لهما، أعرف ذلك. سيكون ذلك سهلاً عليك.

نقلت الآنسة ماربل عينيها الهادئتين عميقتي الزُرقة صوب السيد روسيتر وقالت: ألن تخبرني عن طبيعة الأمر كله؟

تدخلت تشارميان بنفاد صبر قائلة: إن جين صديقة لنا. أنا وإدوارد وقعنا في ورطة. وقد طلبت جين منّا أن نحضر حفلتها حتى تقدمنا لشخص يمكن... من شأنه...

أسرع إدوارد لنجدتها: أخبرتنا جين بأنك صاحبة القول الفصل في أمور التحري يا آنسة ماربل!

طرفت عينا السيدة العجوز، ولكنها عارضت بتواضع: آه، لا، لا! لست كذلك. كل ما في الأمر أن من يعيش في قرية مثلي يعرف الكثير عن الطبيعة البشرية. ولكنكما زدتما فضولي حقاً. أرجو أن تحدّثاني عن مشكلتكما.

قال إدوارد: أخشى أن يكون تعبيري مكروراً مبتذلاً... إنها مجرد كنز مدفون.

– أحقاً؟ ولكن هذا يبدو مثيراً جداً!

– أعرف، مثل حكاية «جزيرة الكنز». ولكن مشكلتنا تفتقر إلى اللمسات الرومنسية المعتادة؛ فلا توجد علامة على خريطة، ولا رموز الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين، ولا تعليمات كتلك التي تقول: «أربع خطوات إلى اليسار، ثم الشمال الغربي...». إنها

قضية عادية لا إثارة فيها، وملخصها هو أين يجب أن نحفر.

– هل حاولتم الحفر؟

– لقد حفرنا مساحة تُقدّر بنحو فدانين مربعين كاملين، حتى لقد أصبحت الأرض جاهزة لتكون حديقة إنتاجية... غير أننا نناقش فقط هل نزرعها بالكوسا أم بالبطاطا!

قالت تشارميان فجأة: أيمكننا أن نخبرك كل شيء عن هذا الأمر؟

– بالطبع يا عزيزتي.

– إذن، هيّا نبحث عن مكان هادئ. هيّا يا إدوارد.

تقدمت خارجة من الغرفة الصغيرة المكتظة العابقة بروائح الدخان، وصعدوا جميعاً الدرج إلى الطابق العلوي ثم دخلوا غرفة جلوس صغيرة هناك.

وعندما جلسوا بدأت تشارميان حديثها على الفور: حسناً، هاك الحكاية! الحكاية تبدأ بالعم ماثيو... أو بالأحرى العم البعيد البعيد... لنا نحن الاثنين. كان عجوزاً بلغ من العمر أرذله، وكنت أنا وإدوارد قريبيه الوحيدين. وكان يحبنا كثيراً، وقد أخبرنا دائماً أنه سيترك عند موته كل ثروته لنا نحن الاثنين مناصفة. وقد مات في شهر آذار الماضي وترك كل شيء كان يملكه لنقتسمه أنا وإدوارد مناصفة. إن ما قلته تواً قد يبدو كلاماً قاسياً، ولكني لا أقصد هنا أن موته كان أمراً مفيداً؛ فقد كنا نحبه كثيراً في الواقع.

ولكنه كان مريضاً منذ فترة طويلة. المهم أن «كل شيء» الذي تركه لنا ظهر أنه لا شيء أبداً، وكانت هذه -بصراحة- صدمة موجعة لنا نحن الاثنين، أليس كذلك يا إدوارد؟

وافقها إدوارد الودود قائلاً: لقد اعتمدنا قليلاً على هذا الأمر. أقصد أن المرء عندما يعلم أن ثروة كبيرة في طريقها إليه فإنه لا يبذل مجهوداً كبيراً لجمع ثروة بنفسه. أنا في الجيش ولا أملك شيئاً يُذكر سوى راتبي، كما أن تشارميان نفسها لا تملك شيئاً. إنها تعمل مديرة مسرح، وهو عمل ممتع تماماً وهي مستمتعة به، ولكنه لا يحقق عوائد تُذكر. كنّا نعقد آمالاً على موضوع زواجنا لكننا لم نقلق بخصوص المال لأننا كنا نعرف أننا سنصبح أغنياء تماماً يوماً ما.

قالت تشارميان: وكما ترين فنحن لسنا كذلك! والأنكى من هذا أن «أنستيز» (وهو بيت العائلة الذي أحببناه أنا وإدوارد) ربما تعين عرضه للبيع، ونحن نشعر أننا لا يمكن أن نطيق هذا الأمر، ولكن إذا لم نجد أموال العم ماثيو فسوف نضطر إلى بيعه.

قال إدوارد: ما زلنا بعيدين عن النقطة الحيوية يا تشارميان.

- حسناً، تكلم أنت إذن.

التفت إدوارد إلى الآنسة ماربل وقال: الأمر هكذا. فمع تقدم العم ماثيو بالعمر أخذ يزداد ارتياباً ولم يعد يثق بأحد.

قالت الآنسة ماربل: إنه سلوك حكيم جداً من جانبه؛ فالطبيعة

البشرية فاسدة إلى حدٍّ لا يمكن تصديقه.

- ربما تكونين على حق. على أية حال كان العم ماثيو يعتقد بذلك. كان له صديق فقد أمواله في أحد البنوك، وصديق آخر دمر حياتَه محامٍ فرّ من وجه العدالة، كما أنه هو نفسه قد خسر أموالاً في شركة وهمية. وقد بلغ به هذا الأمر حداً جعله يقول دائماً إن التصرف الوحيد الآمن والمعقول هو أن يحول المرء أمواله إلى سبائك ذهبية ويدفنها.

قالت الآنسة ماربل: آه، بدأت أفهم.

- نعم. لقد ناقشه أصدقاء له في هذا مشيرين إلى أنه لن يحصل على فوائد بهذه الطريقة، ولكنه كان يرى أن هذا الأمر غير مهم. وقد قال إن ثروة المرء "يجب أن تُحفظ في صندوق تحت السرير أو تُدفن في الحديقة". كانت هذه كلماته.

أكملت تشارميان الحديث قائلة: وعندما توفي لم يترك أي سندات مالية أبداً، رغم أنه كان غنياً جداً. ولذلك نعتقد أن ذلك هو ما فعله دون شك.

أوضح إدوارد: لقد اكتشفنا أنه باع سندات مالية وسحب مبالغ ضخمة من وقت لآخر دون أن يدري أحد ماذا فعل بها. ولكن يبدو ممكناً أنه طبّق خطته فاشترى ذهباً ودفنه.

- ألم يقل شيئاً قبل أن يموت؟ ألم يترك ورقة أو رسالة؟

- هذا هو الأمر الذي يثير الجنون... لم يترك شيئاً! لقد فقد

وعيه بضعة أيام لكنه أفاق قبل أن يموت، وقد نظر إلينا نحن الاثنين وضحك... ضحكة ضعيفة باهتة، ثم قال: "ستكونان على ما يرام أيها الغزالان الجميلان". ثم أغمض عينيه (بل عينه اليمنى، وغمزنا) ثم مات. مسكين العم ماثيو.

قالت الآنسة ماربل متأملة: أغمض عينه.

قال إدوارد متلهفاً: هل يدلك هذا على شيء؟ لقد جعلني هذا أفكر في قصة أرسين لوبين حيث كان شيء مخبأ في عين زجاجية لأحد الرجال. لكن العم ماثيو لم تكن له عين زجاجية.

هزت الآنسة ماربل رأسها حيرة وقالت: لا، لا أستطيع التفكير بأي شيء في هذه اللحظة.

قالت تشارميان بشيء من خيبة الأمل: أخبرتنا حين أنك ستخبريننا فوراً عن المكان الذي ينبغي علينا أن نحفر فيه!

ابتسمت الآنسة ماربل وقالت: أنا لست بالساحرة، ولم أعرف عمك أو أي نوع من الرجال كان، كما أنني لا أعرف البيت أو الأراضي المحيطة به.

قالت تشارميان: وإذا عرفتِهما؟

– حسناً، لا بد أن الأمر سيكون بسيطاً للغاية، أليس كذلك؟

– بسيطاً! تعالي إلى البيت وانظري إن كان بسيطاً!

ربما لم تكن تشارميان تقصد بعبارتها تلك دعوة الآنسة

ماربل جدياً، إلاّ أن الأخيرة سارعت إلى القول: حسناً، هذا كرم كبير حقاً من طرفك يا عزيزتي. لقد أحببت دائماً أن تتاح لي فرصة للبحث عن كنز مدفون.

ثم أضافت وهي تنظر إليهما مبتسمة: وباهتمام دافعه الحب أيضاً!

* * *

قالت تشارميان وهي تشير بيدها بطريقة درامية: أترين!

كانوا قد اختتموا جولة كبيرة في البيت وما حوله، فقد تمشوا في حديقة المطبخ التي حُفرت في كل جزء منها، كما ساروا خلال الغابات الصغيرة حيث حُفر حول كل شجرة، ونظروا بحزن إلى السطح المليء بالحفر للمرجة العشبية التي كانت يوماً مستوية رائعة. ثم صعدوا إلى العلّية، حيث بُعثرت محتويات الصناديق والخزائن الموجودة فيها وأُفرغت من محتوياتها، ونزلوا إلى السراديب حيث تم اقتلاع الأحجار من مكانها، وقاموا بقياس الجدران والضرب عليها، وشاهدت الآنسة ماربل كل قطعة أثاث أثرية احتوت أو يُشك في أنها تحتوي على دُرج سري.

كان على طاولة في غرفة الطعام كومة من الأوراق... جميع الأوراق التي تركها الراحل ماثيو ستراود. لم يتم إتلاف أي ورقة منها، وقد اعتادت تشارميان وإدوارد الرجوع إليها مرة تلو الأخرى، يمعنان النظر في الفواتير والدعوات ومراسلات العمل على أمل أن يعثروا على دليل لم يلحظاه حتى اليوم.

سألتها تشارميان بشيء من الأمل: هل يمكنك التفكير في أي مكان لم نبحث نحن فيه؟

هزت الآنسة ماربل رأسها بالنفي وقالت: يبدو أنكما تعمقتما تماماً في البحث... بل ربما كان تعمقكما هذا أكثر قليلاً من المطلوب. أنا أرى دوماً أن على المرء أن يضع خطة، وهذا يشبه ما حدث مع صديقتي السيدة إيلدريتش، فقد كانت لديها خادمة صغيرة لطيفة تلمّع أرضية البيت بكل حرص، ولكنها كانت من الحرص بحيث بالغت في تلميع أرضية الحمّام، وبينما كانت السيدة إيلدريتش تخرج من الحمّام انزلقت الممسحة من تحت قدميها فوقعت على الأرض وقعة شديدة وكسرت ساقها! وكانت تلك مشكلة فظيعة للغاية لأن باب الحمّام كان مقفلاً، وقد توجب على البستاني أن يحضر سلّماً ويدخل من خلال النافذة لإنقاذها.

تململ إدوارد فسارعت الآنسة ماربل للقول: أرجو أن تسامحني. أعرف أنني أنحرف دوماً عن موضوع الحديث، ولكن الشيء بالشيء يُذكر، وهذا ما يكون مفيداً أحياناً. كل ما أحاول قوله هو أننا لو حاولنا أن نشحذ عقولنا ونفكر في مكان محتمل...

قال إدوارد غاضباً: أنت فكري لنا في مكان يا آنسة ماربل؛ فعقلي وعقل تشارميان أصبحا الآن فارغين!

– أيها المسكينان. إنه أمر متعب جداً لكما بالطبع. إذا لم تمانعا فإنني أود إلقاء نظرة على هذه...

وأشارت إلى الأوراق على الطاولة وقالت: هذا إن لم يكن فيها أوراق خاصة؛ فلا أريد الظهور بمظهر المتطفلة.

– آه، لا بأس. لكن أخشى ألاّ تحدي شيئاً.

جلست قرب الطاولة وبدأت تعمل في كومة الأوراق، وعندما كانت تنتهي من كل واحدة كانت تفرزها –آلياً– في مجموعات صغيرة مرتبة. وعندما انتهت من عملها جلست تحدق أمامها بضع دقائق.

سألها إدوارد بنبرة لا تخلو من خبث: حسناً يا آنسة ماربل؟

فوجئت الآنسة ماربل (وكأنها كانت شاردة بعيداً) وقالت: أرجو المعذرة، لم أسمع ما قلتَه.

– هل وجدت شيئاً ذا صلة بالأمر؟

– آه لا، لا شيء من هذا. ولكني أعتقدُ –حقاً– أنني أعرف أي نوع من الرجال كان عمك. إنه مثل عمي هنري؛ كان مولعاً بالمزاح. واضح أنه كان أعزب... لا أدري سبب ذلك، ربما كان بسبب خيبة أمل مبكرة؟ وهو منهجي إلى حد معين، ولكنه لا يحب الارتباط. إن كثيراً من العزاب على هذا الشكل!

قامت تشارميان بإشارة لإدوارد من وراء ظهر الآنسة ماربل مفادها أن هذه المرأة معتوهة.

كانت الآنسة ماربل مستمرة في الحديث عن عمها الراحل

هنري بسعادة: كان مولعاً جداً بالغمز في كلامه، وهذا الغمز مزعج جداً لبعض الناس... إن من شأن التلاعب بالألفاظ أن يثير الغضب الشديد. كما كان رجلاً شكّاكاً أيضاً، وكان مقتنعاً دائماً بأن الخدم كانوا يسرقونه. صحيح أنهم كانوا يسرقونه أحياناً، ولكن ليس دائماً. وقد تفاقم ذلك عند الرجل المسكين حتى بات –في النهاية– يرتاب في عبثهم بطعامه، فأخذ يرفض أكل شيء سوى البيض المسلوق (بحجة أن أحداً لا يمكنه العبث بداخل البيضة المسلوقة)! لقد كان العم العزيز هنري ذا روح مرحة في وقت من الأوقات، وكان يحب تناول القهوة بعد العشاء ويطلب المزيد منها دائماً.

أحس إدوارد بأنه سيصاب بالجنون لو سمع المزيد عن العم هنري، ولكن الآنسة ماربل تابعت تقول: كما أنه كان مولعاً بالشباب والصغار، ولكنه كان يميل إلى إغاظتهم قليلاً؛ فكان يضع علب الحلوى في مكان لا يمكن للطفل أن يصله.

ألقت تشارميان بالأدب جانباً وقالت: أظنه يبدو فظيعاً!

– آه، لا يا عزيزتي؛ كان مجرد أعزب عجوز، ولم يكن معتاداً على الأطفال. ولم يكن بالغبي أبداً في الواقع. كان يحتفظ بمبلغ كبير من المال، وقد ركّب خزنة حديدية في البيت وظل يردد –طوال الوقت– مزاياها وما توفره من أمان. ونتيجة لحديثه الكثير عنها اقتحم اللصوص بيته ذات ليلة وفتحوا ثغرة في الخزنة باستخدام أداة كيميائية.

قال إدوارد: ووقع في جزاء عمله.

قالت الآنسة ماربل: آه، ولكن لم يكن في الخزنة شيء. كان يحتفظ بنقوده في مكان آخر... وراء بعض مجلدات المواعظ في المكتبة، وكان يقول إن الناس لا يأخذون كتاباً من هذا النوع من مكانه!

قاطعها إدوارد بانفعال: هذه فكرة جديدة. ماذا عن المكتبة؟

لكن تشارميان هزت رأسها بازدراء وقالت: أتظنني لم أفكر بهذا؟ لقد فتشت جميع الكتب يوم الثلاثاء الماضي، عندما ذهبت أنت إلى بورتسماوث. أخرجت جميع الكتب ونفضتها ولم أعثر على شيء.

تنهد إدوارد، ثم نهض وحاول –بلباقة– تخليص نفسه من ضيفتهما المخيِّبة للآمال قائلاً: جميل منك أن تأتي إلى هنا وتحاولي مساعدتنا. نحن نأسف لإخفاقنا. أشعر أننا بدّدنا الكثير من وقتك... سأُخرج السيارة لإيصالك بحيث تلحقين بقطار الثالثة والنصف.

– آه، ولكن يجب أن نعثر على النقود، أليس كذلك؟ يجب ألاّ تستسلم لليأس يا سيد روسيتر. إذا لم تنجح من أول مرة فحاول، ثم حاول، ثم حاول.

– هل تقصدين أنك ستواصلين... ستواصلين المحاولة؟

– بالضبط. أنا لم أبدأ بعد، وكما تقول السيدة بيتون في كتابها عن الطهي: «أمسك أولاً أرنبك...»، وهو كتاب رائع ولكنه باهظ الثمن، وتبدأ معظم وصفات الطعام بعبارة: «خذي

ربع غالون من القشدة وعشر بيضات». ماذا كنت أقول؟ آه، نعم؛ علينا أن نمسك بأرنبنا. وقد أمسكنا أرنبنا إذا صح التعبير، والأرنب هنا هو عمك ماثيو بالطبع، وما علينا إلاّ أن نقرر الآن أين كان من شأنه أن يخبئ الأموال. يجب أن يكون هذا بسيطاً جداً.

سألتها تشارميان: بسيطاً؟

– نعم يا عزيزتي. أنا واثقة أن من شأنه أن يفعل الشيء الواضح... أظنه وضع المال في دُرج سري.

قال إدوارد بجفاء: لا يمكنك أن تضعي سبائك ذهبية في دُرج سري.

– نعم، بالطبع. ولكن لا يوجد سبب للاعتقاد بأن المال يأخذ شكل سبائك ذهبية.

– لقد كان دائماً يقول...

– وهذا ما كان يقوله عمي هنري عن خزنته! ولذلك أشكّ كثيراً في أن كلامه لم يكن سوى ستار للتضليل. إن أحجار الألماس يمكن وضعها في دُرج سري بسهولة تامة.

– ولكننا فتشنا كل الأدراج السرية. لقد أحضرنا نجاراً لفحص الأثاث.

– أحقاً يا عزيزتي؟ هذا ذكاء منك. أرى أن طاولة المكتب الخاصة التي كان عمك يستخدمها هي المكان الأرجح. أكان مكتبه ذلك المكتب المقابل للحائط هناك؟

– نعم، وسوف أريك.

ذهبت تشارميان إلى المكتب وفتحت مصراع المنضدة. كان في الداخل رفوف صغيرة مربعة وأدراج صغيرة، وفتحت باباً صغيراً في الوسط ولمست لولباً داخل الدرج الأيسر. أصدر الدرج الأوسط صوتاً وانزلق إلى الأمام، فأخرجته تشارميان كاشفة عن حجيرة صغيرة تحته، وكانت فارغة.

صاحت الآنسة ماربل: أليست هذه مصادفة غريبة؟ كان للعم هنري مكتب مثله، إلاّ أنه كان من خشب الجوز، أما هذا فمن خشب الماهوغاني الأحمر.

قالت تشارميان: على أية حال ليس فيه شيء كما ترين.

– أظن أن النجار الذي أحضرتماه كان شاباً ولم يكن يعرف كل شيء. كان الناس بارعين جداً عندما يصنعون مخابئ سرية في تلك الأيام، وكان ما يُسمى السرّ داخل السر.

أخرجت دبوساً من كومة شعرها الرمادي المرتب فأدخلته في مكان بدا ثقباً صغيراً لحشرة في أحد جوانب الدرج السري، وببعض الصعوبة أخرجت منه درجاً صغيراً. وكان بداخله حزمة من الرسائل باهتة اللون وورقة مطوية.

انقض إدوارد وتشارميان على هذا الاكتشاف معاً. فتح إدوارد الورقة بأصابع مرتجفة، ثم رماها وهو يصيح مغتاظاً: تباً! إنها وصفة لتحضير وجبة طعام... لحم مشوي!

حلت تشارميان الخيط الذي كان يربط الرسائل وأخرجت واحدة منها فنظرت إليها قائلة: إنها رسائل غرامية!

هتفت الآنسة ماربل بحماسة فكتورية: هذا مثير جداً! ربما كان هذا هو سبب عدم زواج عمك أبداً.

قرأت تشارميان بصوت مرتفع:

عزيزي الغالي ماثيو،

لا بد أن أعترف بأن الوقت قد طال على استلام آخر رسالة منك. إنني أحاول أن أشغل نفسي بالمهام العديدة الموكلة إلي، وغالباً ما أقول لنفسي إنني محظوظة جداً لمشاهدتي كثيراً من بلاد العالم، رغم أنني لم أحسب عندما ذهبت إلى أميركا أنني سأسافر إلى هذه الجزر البعيدة!

سكتت تشارميان ثم قالت: من أين هذه الرسالة؟ آه! من هاواي! ثم أكملت:

للأسف، فإن السكان المحليين أبعد ما يكونون عن المدنية. إنهم بدائيون ويقضون معظم وقتهم في السباحة والرقص ويزينون أنفسهم بأكاليل الزهور. وقد نجح السيد غراي في تنصير بعض السكان، ولكنه عمل شاق، وقد ثبطت عزيمته وعزيمة زوجته. إنني أحاول بذل جهدي لتشجيعه وإدخال السرور إلى نفسه، لكنني -أنا الأخرى- حزينة لسبب تعرفه يا عزيزي ماثيو. للأسف

فإن الغياب محنة قاسية على القلب المحب. إن قَسَمك الذي تجدّده كل مرة وتأكيداتك على حبك لي تفرحني كثيراً. أنت تملك الآن وإلى الأبد قلبي المحب والمخلص يا عزيزي ماثيو. وسأبقى دائماً... حبك الحقيقي، بيتي مارتن.

ملاحظة: أرسل رسائلي لك على عنوان صديقتنا المشتركة ماتيلدا غريفس كالعادة. أرجو أن يسامحني الله على حيلتي الصغيرة هذه.

صفر إدوارد قائلاً: امرأة تعمل في البعثات التبشيرية! كانت تلك -إذن- هي قصة حب العم ماثيو. ترى لماذا لم يتزوجا؟

قالت تشارميان وهي تتفحص الرسائل: يبدو أنها سافرت إلى جميع أنحاء العالم... جزر موريشيوس... جميع الأماكن. ربما ماتت من الحمى الصفراء أو مرض مثله.

جفل الاثنان بسبب ضحكة خفيفة أطلقتها الآنسة ماربل وقد بدا عليها الفرح. قالت: حسناً، حسناً، هذا غريب!

كانت تقرأ وصفة تحضير اللحم المشوي، وعندما رأت نظراتهما المتسائلة قرأت بصوت مرتفع:

لحم مشوي مع السبانخ. تؤخذ قطعة من لحم الفخذ، تُفرك بالثوم وتُغطى بالسكر الأحمر، ثم توضع على نار خفيفة في الفرن. ثم تُقدَّم محاطة بالسبانخ المهروس.

ماذا تريان في هذه؟

قال إدوارد: أراها أكلة مقززة.

– لا، من شأنها أن تكون أكلة رائعة. ولكن ما رأيكما بالأمر كله؟

أضاء وجه إدوارد فجأة وقال: أتظنينها شيفرة ما... أو رسالة سرية؟

أمسك بها وقال: انظري يا تشارميان، قد تكون كذلك بالفعل! وإلاّ لما كان من داعٍ لوضع وصفة طعام في دُرج سري.

قالت الآنسة ماربل: بالضبط؛ هذه نقطة مهمة جداً.

قالت تشارميان: أعرف ما يمكن أن تكون... حبراً سرياً! دعنا نسخّنها، أشعل المدفأة الكهربائية.

فعل إدوارد ما قالته، ولكن لم تظهر أية إشارات على وجود كتابة سرية.

تنحنحت الآنسة ماربل وقالت: أظن أنكما تصعِّبان الأمر قليلاً. إن وصفة الطعام مجرد مؤشر فقط. أعتقد أن الرسائل هي الأمر المهم.

– الرسائل؟

– وخصوصاً التوقيع.

لكن إدوارد لم يكد يسمعها، إذ صاح دَهِشاً: تشارميان، تعالي هنا! إنها على حق. انظري... المغلفات قديمة بالفعل، ولكن الرسائل نفسها كُتبت حديثاً.

قالت الآنسة ماربل: بالضبط.

– لقد زُيفت بحيث تبدو قديمة. أراهن أن العم ماثيو هو الذي زورها بنفسه...

قالت الآنسة ماربل: بالضبط.

– الأمر كله خدعة. لم تكن هناك امرأة تعمل في التبشير. لا بد أنها شيفرة.

– يا ولديّ العزيزين... لا حاجة لجعل الأمر صعباً للغاية. كان عمكما رجلاً بسيطاً تماماً، وكان يريد أن يمزح كعادته، وهذا كل ما في الأمر.

لأول مرة أصغيا إليها إصغاء كاملاً. سألتها تشارميان: ماذا تقصدين بالضبط يا آنسة ماربل؟

– أقصد أنك تمسكين بالمال بيدك في هذه اللحظة بالفعل.

حدقت تشارميان إلى الرسالة.

– التوقيع يا عزيزتي... إنه يكشف كل شيء. وصفة الطعام مجرد مؤشر. إذا جردنا كلماتها من الثوم والسكر الأحمر وبقية هذه الأشياء فماذا تكون عملياً؟ سيبقى فخذ اللحم والسبانخ

بالتأكيد. فخذ اللحم والسبانخ. والمعنى: هراء! ولذلك فالواضح أن الرسائل هي المهمة. ثم فكرا بما فعله عمكما قبل موته بوقت قصير. لقد غمز بعينه كما قلتما. حسناً، هذا يعطيكما المفتاح.

قالت تشارميان: هل أنت مجنونة أم نحن المجانين؟

– لا بد أنك سمعت –يا عزيزتي– العبارة التي تقول: «ليس كل ما يلمع ذهباً». لقد كان القدماء يقولون إذا ما رأوا فتاة جميلة: «عيني على بيتي مارتن».

شهق إدوارد وعيناه تنظران إلى الرسالة التي يمسك بها بيده وقال: بيتي مارتن...

– بالطبع يا سيد روسيتر. كما قلتَ لتوك: لم توجد أبداً واحدة بهذا الاسم. عمك هو الذي كتب الرسائل، كما أظن أنه استمتع كثيراً بكتابتها! وكما قلت فإن الكتابة على المغلفات تبدو مكتوبة قبل الرسائل نفسها بوقت طويل... وفي الواقع هذه المغلفات لا تخص الرسائل التي فيها لأن خاتم البريد على المغلف الذي بيدك يحمل تاريخ ألف وثمانمئة وواحد وخمسين.

سكتت، ثم شدّدت على كلمتها: **عام ألف وثمانمئة وواحد وخمسين**. وهذا يوضح كل شيء، أليس كذلك؟

قال إدوارد: ليس بالنسبة لي.

– بالطبع، أظن أنه ما كان سيتضح لي أيضاً لولا ليونيل، ابن بنت أختي. كان ولداً صغيراً يهوى جمع الطوابع ويعرف كل

شيء عن طوابع البريد. وهو الذي أخبرني عن الطوابع النادرة والثمينة، وأن طابعاً اكتُشف حديثاً سيعرض في المزاد. وأذكر أنه ذكر لي طابعاً معيناً... صدر عام ألف وثمانمئة وواحد وخمسين... **طابع أزرق من فئة سنتين**. وقد بيع بمبلغ يصل إلى نحو خمسة وعشرين ألف دولار حسب ظني. تخيّل! وأظن أن الطوابع الأخرى نادرة وثمينة. لا شك أن عمكما قد اشترى هذه الطوابع من أناس يتعاملون بها وكان حريصاً على «تغطية خدعه» كما يُقال.

زأر إدوارد وجلس واضعاً وجهه بين يديه، فسألته تشارميان: ماذا في الأمر؟

– لا شيء. لقد راودتني فقط الفكرة بأننا –لولا الآنسة ماربل– كنا سنحرق هذه الرسائل بكل أدب وفاء لذكرى العجوز!

قالت الآنسة ماربل: هذا ما لا يدركه هؤلاء الرجال المسنون الذين يحبون المزاح. أذكر أن العم هنري أرسل ورقة نقدية بمبلغ خمسة جنيهات لابنة أخ له يحبها هديةً في عيد الميلاد. وقد وضعها بين ورقتي بطاقة المعايدة وألصق الورقتين وكتب عليها: "مع حبي وأطيب أمنياتي. أخشى أن يكون هذا كل ما يمكنني عمله لك هذا العام". وقد تضايقت الفتاة المسكينة مما ظنته بخلا منه فألقت البطاقة مباشرة في النار. ثم كان عليه أن يعطيها غيرها بالطبع.

تغيرت مشاعر إدوارد نحو العم هنري تغيراً تاماً وقال: آنسة ماربل، سأقيم لك مأدبة عامرة على شرف عمك الراحل هنري.

* * *

جريمة قتل بالمتر

أمسكت الآنسة بوليت مطرقة الباب وضربت بها باب البيت ضربات خفيفة، وبعد فترة قصيرة ضربت ثانية. تحرك الكيس من تحت ذراعها الأيسر قليلاً وهي تطرق الباب فقامت بتعديله، وكان في داخل الكيس الثوب الشتوي الأخضر الجديد للسيدة سبينلو، وهو جاهز لقياسه. وكانت تتدلى من يد الآنسة بوليت اليسرى حقيبة من الحرير الأسود تحتوي على متر قياس ومقص كبير.

كانت الآنسة بوليت طويلة القامة نحيلة ذات أنف رفيع وشفتين مزمومتين وشعر أشيب خفيف. وقد ترددت قبل أن تدق على الباب للمرة الثالثة، وعندما نظرت إلى الشارع رأت واحدة تقترب منها بسرعة.

صاحت الآنسة هارتنيل (وهي سيدة مرحة مسفوعة الوجه في الخامسة والخمسين من العمر) بصوتها العالي المعتاد: مساء الخير آنسة بوليت!

وأجابتها الخياطة: مساء الخير يا آنسة هارتنيل.

كان صوتها رفيعاً جداً وهادئ النبرات، وأكملت تقول: أرجو المعذرة، ولكن هل لديك فكرة إن كانت السيدة سبينلو

خارج البيت؟

- لا أعرف أبداً.

- إنه أمر محرج بعض الشيء. يُفترض أن تقيس السيدة سبينلو ثوبها الجديد عصر اليوم، وقد طلبت مني أن آتي إليها في الساعة الثالثة والنصف.

نظرت الآنسة هارتنيل إلى ساعتها وقالت: لقد تجاوزت الثالثة والنصف بقليل.

- نعم. لقد طرقت الباب ثلاث مرات، ولكن لا يبدو أن في الداخل أحداً، ولذلك تساءلت إن كانت السيدة سبينلو قد خرجت من بيتها ونسيت الموعد. إنها لا تنسى مواعيدها عموماً، كما أنها كانت تريد لبس الثوب بعد غد.

عبرت الآنسة هارتنيل البوابة واتجهت صوب الآنسة بوليت عند باب البيت وسألتها: لماذا لا تفتح غلاديس الباب؟ آه، اليوم هو الثلاثاء، وهو يوم عطلتها. أظن أن السيدة سبينلو نائمة. هل طرقت الباب بقوة؟

أمسكت المطرقة وطرقت بها الباب طرقات تصم الآذان، كما ضربت الباب بيدها ضربات قوية أيضاً وصاحت تنادي بصوت جهوري: من بالداخل؟

ولكن لم ترِدْ أي إجابة.

تمتمت الآنسة بوليت: "آه، لا شك أن السيدة سبينلو قد

نسيت الموعد وخرجت، سآتي إليها في وقت آخر". ثم استدارت لتعود أدراجها نحو البوابة الخارجية.

قالت الآنسة هارتنيل بقوة: هراء، لا يمكن أن تكون قد خرجت؛ فلو خرجت لالتقيت بها. سأنظر من النوافذ وأرى إن كان في البيت أحد.

ضحكت بأسلوبها المبتهج المعتاد لتوضح أنها مجرد مزحة، ثم نظرت من خلال أقرب نافذة نظرة لامبالية لأنها كانت تعرف جيداً أن الغرفة الأمامية نادراً ما تُستخدم؛ ذلك لأن السيد سبينلو وزوجته يفضلان الجلوس في غرفة الجلوس الصغيرة الخلفية.

ورغم أنها كانت نظرة لامبالية إلاّ أنها نجحت في تحقيق الهدف منها، وبالفعل لم ترَ الآنسة هارتنيل أثراً للحياة داخل البيت. وعلى العكس من ذلك، فقد رأت من خلال النافذة السيدة سبينلو ممددة على السجادة الصغيرة أمام الموقد... ميتة!

* * *

قالت الآنسة هارتنيل وهي تحكي القصة فيما بعد: تمكنت -طبعاً- من ضبط نفسي واستخدام عقلي. لم يكن من شأن تلك المخلوقة بوليت أن تعرف كيف تتصرف، فقلت لها إن علينا أن نحافظ على رباطة جأشنا وطلبت منها أن تبقى مكانها حتى أذهب لاستدعاء الشرطي بولك. وقد قالت شيئاً عن عدم رغبتها في البقاء وحدها، لكني لم ألتفت لكلامها على الإطلاق. يجب على المرء أن يكون صلباً مع مثل هؤلاء الأشخاص، وقد وجدتُ

–دائماً– أن أمثالها يحبون عمل ضجة. ولذلك كنتُ على وشك المغادرة في نفس اللحظة التي أتى بها السيد سبينلو من عند زاوية البيت.

سكتت الآنسة هارتنيل سكتة ذات دلالة، ممّا شجع محدثها على سؤالها بأنفاس لاهثة: أخبريني، كيف كانَ يبدو؟

وعندها كان من شأن الآنسة هارتنيل أن تكمل قائلة: بصراحة شككتُ بوجود شيء في الأمر على الفورا كان هادئاً إلى أبعد حد ولم يبدُ أنه قد فوجئ بأي شكل. ولكم أن تقولوا ما تشاؤون، ولكن ليس من الطبيعي أن يسمع رجل أن زوجته قد ماتت ولا يظهر عليه أي انفعال.

وافقها الجميع على هذا الكلام.

كما أن الشرطة وافقوها أيضاً، فقد ارتابوا في برود السيد سبينلو إلى الحد الذي لم يضيّعوا معه أي وقت في التحقق من الحالة التي يعيشها الرجل نتيجة وفاة زوجته، وعندما اكتشفوا أن السيدة سبينلو كانت ثرية وأن ثروتها ستذهب إلى زوجها بموجب وصية كتبتها بعد زواجها منه بوقت قصير ازدادت شكوكهم عمّا كانت عليه.

أما الآنسة ماربل ذات الوجه اللطيف (وهي العانس العجوز التي تعيش في البيت المجاور لبيت القس) فقد قابلها الشرطة في وقت مبكر جداً... خلال نصف ساعة من اكتشاف الجريمة. وقد جاءها الشرطي بولك وهو يقلّب دفتر ملاحظاته بشكل يوحي

بأهميته وقال: إن لم يكن عندك مانع يا سيدتي، فلدي بعض الأسئلة أريد طرحها عليك.

قالت الآنسة ماربل: بخصوص مقتل السيدة سبينلو؟

جفل بولك وقال: هل لي أن أسألك كيف عرفت بهذا الأمر يا سيدتي؟

– السمكة.

كان الرد مفهوماً تماماً بالنسبة للشرطي بولك، وقد افترض –بصورة صحيحة– أن صبيّ السمّاك هو الذي أخبرها بالخبر عندما أحضر لها السمك في المساء.

أكملت الآنسة ماربل بلطف: كانت ممددة على الأرض في غرفة الجلوس، مخنوقة... وربما كان ذلك بحزام رفيع جداً. ولكن أداة الجريمة لم تكن موجودة.

ظهر الغضب على وجه بولك: كيف عرف ذلك الصغير فريد بكل شيء...

قاطعته الآنسة ماربل بلباقة قائلة: في سترتك دبوس.

نظر الضابط بولك إلى سترته مدهوشاً وقال: إنهم يقولون: شاهد دبوساً والتقطه وانظر كيف سيكون حظك سعيداً طوال النهار.

– أرجو أن يتحقق ذلك. والآن، ما هي الأسئلة التي أردتَ

طرحها عليّ؟

تنحنح الشرطي بولك وافتعل الأهمية ثم نظر إلى دفتر ملاحظاته وقال: لقد أعطاني السيد آرثر سبينلو زوج الفقيدة أقواله، وهو يقول إن الآنسة ماربل اتصلت به هاتفياً في الساعة الثانية والنصف (حسبما يتذكر) وطلبت منه أن يأتي إليها في الساعة الثالثة والربع لأنها كانت تود استشارته بخصوص شيء معين. هل هذا صحيح يا سيدتي؟

قالت الآنسة ماربل: بالتأكيد غير صحيح.

- ألم تتصلي بالسيد سبينلو الساعة الثانية والنصف؟

- لا في الثانية والنصف ولا في أي ساعة أخرى.

قال بولك وهو يفتل شاربه وعلامة الرضا بادية على وجهه: آه.

- وماذا قال السيد سبينلو غير هذا؟

- إفادته تقول إنه جاء إلى هنا كما طلبتِ منه وترك بيته في الساعة الثالثة وعشر دقائق، ولدى وصوله إلى هنا أخبرته الخادمة بأن الآنسة ماربل ليست في البيت.

- هذا الجزء من الإفادة صحيح. جاء إلى هنا فعلاً لكني كنت أحضر اجتماعاً للجمعية النسائية.

- آه.

صاحت الآنسة ماربل: أخبرني أيها الشرطي، هل تشكّون في السيد سبينلو؟

- ليس من صلاحيتي قول هذا في الوقت الحالي. ولكن يبدو لي، دون تسمية أسماء، أن أحدهم يحاول أن يكون بارعاً.

قالت الآنسة ماربل متأملة: السيد سبينلو؟

كانت تحب السيد سبينلو. كان رجلاً ضئيل الجسم نحيفاً ورسمياً تقليدياً في كلامه، وكان مثالاً للاحترام. وقد بدا غريباً أن يختار المجيء للعيش في الريف، فمن الواضح أنه عاش في المدن طوال حياته. وقد كشف للآنسة ماربل عن سبب ذلك، إذ قال لها: كنت أعتزم -منذ أن كنت صبياً صغيراً- العيش في الريف يوماً من الأيام وأن تكون لي حديقتي الخاصة. وكنت أحب الأزهار كثيراً. وقد كان لزوجتي -كما تعلمين- محل لبيع الورود، وهناك رأيتها لأول مرة.

كلام واقعي مجرد، وقد فتح المجال أمام صور رومنسية عديدة. صور السيدة سبينلو وهي أصغر عمراً وأجمل تُرى في إطار من الورود والأزهار.

ولكن السيد سبينلو لم يكن يعرف شيئاً عن الأزهار. لم تكن عنده أية فكرة عن البذور وتقليم الأزهار وزراعتها، ولا عن النباتات الحولية أو النباتات المعمرة. لم تكن لديه سوى رؤية في ذهنه... رؤية لحديقة منزلية صغيرة، تزدحم بأزهار ذات روائح عطرة وألوان براقة، وكان يطلب النصائح في هذا الشأن بصورة

تكاد تثير الشفقة، وكان يسجل ردود الآنسة ماربل على أسئلته في دفتر صغير.

كان رجلاً ذا أسلوب هادئ، وربما كانت هذه هي الصفة التي جعلت الشرطة يهتمون بأمره عندما وُجدت زوجته مقتولة. ومع الصبر والمثابرة علموا الكثير عن السيدة سبينلو الراحلة... وسرعان ما عرفت قرية سينت ميري ميد بأسرها كل هذا الكثير.

كانت السيدة سبينلو قد بدأت حياتها خادمة غير متفرغة في بيت كبير. وقد تركت ذلك العمل لتتزوج مساعد البستاني وافتتحت معه محلاً لبيع الزهور في لندن. وقد ازدهر المحل، ولكن صحة البستاني لم تزدهر، وما لبث أن مرض ومات. واستمرت أرملته في إدارة المحل وتوسعت فيه بطريقة طموحة، وواصل عملها ازدهاره. ثم باعت المحل بسعر مغرٍ وعمدت إلى الزواج للمرة الثانية... بالسيد سبينلو، وهو صائغ مجوهرات في أواسط عمره ورث شركة صغيرة تكافح من أجل البقاء. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى باع الاثنان الشركة وقدما إلى قرية سينت ميري ميد.

كانت السيدة سبينلو امرأة غنية نتيجة أرباحها التي جنتها من محل الزهور الذي افتتحته «بإلهام روحاني» كما كانت تقول لكل من هب ودب، وقد نمت جميع استثماراتها وازدهر بعضها بطريقة مثيرة تماماً. وعندما جاءت إلى سينت ميري ميد أصابتها مسحة من التديّن وباتت كثيرة التردد على الكنيسة، وصارت تهتم بالأحداث المحلية وتشارك في لعبة البريدج السائدة في القرية.

حياة رتيبة عادية. وفجأة... جريمة قتل.

* * *

كان قائد الشرطة الكولونيل ميلشيت قد استدعى المفتش سلاك. وكان سلاك رجلاً شديد الثقة بنفسه، وعندما يصل إلى قناعة تراه واثقاً من أمره. وقد كان الآن واثقاً تماماً إذ قال: الزوج هو الذي فعلها يا سيدي.

– أتظن ذلك؟

– أنا متأكد منه تماماً. يكفي أن تنظر إليه؛ فالذنب مكتوب على جبينه، وهو لم يُظهر أية علامة على الحزن أو العاطفة أبداً. لقد عاد إلى البيت وهو يعلم أنها ميتة!

– ألم يكن من شأنه –لو صح ذلك– أن يمثّل دور الزوج المفجوع على الأقل؟

– هو ليس من هذه النوعية يا سيدي؛ فهو مغرور معجب بنفسه. إن بعض الرجال لا يستطيعون التمثيل ويكونون شديدي الحدية.

– أتوجد في حياته أية امرأة أخرى؟

– لم نستطع العثور على أثر لأي امرأة. إنه من النوع البارع –بالطبع– ومن شأنه إخفاء تحركاته، وأنا أرى أنه سئم من زوجته. لقد كانت هي التي تملك المال وأظن انها امرأة يصعب

العيش معها... ولذلك قرر، بأعصاب باردة، التخلص منها والعيش بمفرده مرتاحاً.

- نعم، ربما كانت القضية على هذا النحو.

- أؤكد لك أن هذا هو ما حصل. لقد وضع خططه بحرص، فتظاهر بأنه تلقى مكالمة هاتفية...

قاطعه ميلشيت: هل تتبعتم حصول أية مكالمة هاتفية؟

- لم نعثر على أي أثر لأي مكالمة يا سيدي، وهذا يعني أحد أمرين: إما أنه كان يكذب، أو أن المكالمة كانت من هاتف عمومي. الهاتفان العموميان الوحيدان في القرية أحدهما في محطة القطارات والآخر في مكتب البريد، ومن المؤكد أن المكالمة لم تتم من مكتب البريد؛ فالسيدة بليد ترى كل من يدخل هناك. أما المحطة فربما؛ فالقطار يصل في الساعة الثانية وسبع وعشرين دقيقة ويكون هناك بعض الازدحام وقتها. ولكن الشيء الغريب أنه يقول إن الآنسة ماربل هي التي خابرته، وهذا ليس صحيحاً بالتأكيد؛ فالمكالمة لم تأت من بيتها، كما أنها كانت خارج البيت في الجمعية في ذلك الوقت.

- ألستَ تُغفِل إمكانية قيام أحدهم بإبعاد الزوج عن بيته متعمداً... حتى يتسنى له قتل السيدة سبينلو؟

- لعلك تفكر في الشاب تيد جيرارد يا سيدي، أليس كذلك؟ لقد حققت في أمره، ولكن ما يواجهنا في هذه الحالة هو

عدم وجود دافع يا سيدي؛ فهو لا يستفيد شيئاً من موتها.

- ومع ذلك فهو شخصية كريهة، وفي سجله عملية اختلاس مبلغ لا بأس به من المال.

- أنا لا أقول إنه مستقيم، ومع ذلك فقد ذهب إلى رئيسه في العمل واعترف بعملية الاختلاس تلك... مع أن أصحاب العمل لم ينتبهوا لذلك في البداية.

- سمعت أنه صار عضواً في جماعة أكسفورد الدينية.

- نعم يا سيدي. ولعل ضميره قد أنبه بسبب تدينه فذهب مباشرة لإبراء ذمته واعترف بسرقة المال. ولكنني لا أستبعد أن يكون ذلك مجرد دهاء منه؛ فربما ظن أن الشبهات تدور حوله فقرر المقامرة بإظهار توبته الصادقة.

- إن لديك عقلاً شكاكاً يا سلاك. على فكرة، هل تحدثت مع الآنسة ماربل؟

- وما علاقتها هي بالأمر يا سيدي؟

- آه، لا شيء، ولكنها تسمع أشياء كثيرة. لم لا تذهب وتتحدث معها؟ إنها عجوز ذكية جداً.

غيّر سلاك مجرى الحديث قائلاً: كنت أعتزم سؤالك عن شيء يا سيدي. بالنسبة لوظيفة الخدمة المنزلية التي بدأتْ بها القتيلة حياتها العملية... في بيت السير روبرت أبركرومبي. هناك

وقعت عملية السطو على المجوهرات (وكانت من الزمرد الثمين) ولم يتم العثور على المجرمين. لقد تقصيت هذا الأمر، ولا بد من أن العملية قد وقعت عندما كانت السيدة سيبنلو هناك، رغم أنها كانت فتاة صغيرة آنذاك. أتحسب أنها كانت متورطة في ذلك الأمر يا سيدي؟ لقد كان سيبنلو -كما تعلم- من أولئك الصاغة الصغار التافهين... ممن يمكن أن تدور حولهم الشبهات.

هز ميلشيت رأسه بالنفي وقال: لا أحسب أن في هذا الأمر شيئاً. بل إنها لم تكن تعرف سيبنلو في ذلك الوقت. نعم، أتذكّر القضية. كان رأي الشرطة أن أحد أبناء صاحب البيت هو المتورط في ذلك العمل، واسمه جيم أبركرومبي. كان شاباً مبذراً جداً وكانت عليه ديون متراكمة، وقد تم الوفاء بالديون بعد السرقة مباشرة وقالوا إن امرأة غنية هي التي سددت الديون، ولكن لا أعرف... فقد عمد أبركرومبي العجوز إلى التستر على القضية قليلاً وحاول وقف الشرطة عن متابعة التحقيقات.

قال سلاك: كانت مجرد فكرة يا سيدي.

* * *

استقبلت الآنسة ماربل المفتش سلاك بسرور، خاصة عندما علمت أن الكولونيل ميلشيت هو الذي أرسله: هذا لطف كبير حقاً من الكولونيل ميلشيت. لم أعرف أنه ما زال يتذكرني.

- إنه يتذكرك تماماً، وقد قال لي إن ما لا تعرفينه عمّا يجري في سينت ميري ميد لا يستحق المعرفة.

- هذا لطف كبير منه، ولكني لا أعرف شيئاً أبداً. أقصد بخصوص هذه الجريمة.

- تعرفين ماذا يتحدث الناس حول هذا الأمر.

- آه، طبعاً... ولكن لا فائدة من ترديد الأقاويل، أليس كذلك؟

قال سلاك محاولاً إظهار اللطف: هذا ليس حديثاً رسمياً بيننا. إنه كلام خاص.

- تقصد أنك تريد معرفة ما يقوله الناس حقاً، سواء كان صحيحاً أو لا؟

- هذه هي الفكرة.

- حسناً، لقد دار الكثير من الحديث والتخمين بالطبع. والحق أنه يوجد معسكران متميزان؛ فهناك -أولاً- من يعتقد أن الزوج هو الذي فعلها، فالزوج أو الزوجة هما من تقع عليهما الشبهة في مثل هذه الأحوال، ألا ترى ذلك؟

أجابها المفتش بحذر: ربما.

- ذلك أنهما يكونان على مقربة شديدة كل من الآخر... بالإضافة إلى وجود جانب المال في أحيان كثيرة. لقد سمعت أن السيدة سيبنلو هي التي كانت تملك الأموال ولذلك فإن السيد سيبنلو يستفيد من موتها، وفي هذا العالم الفاسد يمكن -غالباً-

إيجاد المبرر لأكثر الافتراضات قسوة.

– سيحصل على مبلغ جيد.

– هذا صحيح. قد يبدو من الممكن أن يخنقها ويخرج من البيت من الخلف، فيعبر الحقول إلى بيتي ثم يطلب رؤيتي زاعماً أنه تلقى مكالمة هاتفية مني، ثم يعود ويجد زوجته مقتولة في غيابه... آملاً طبعاً ان تُنسَب الجريمة إلى مشرد أو سارق.

أومأ المفتش برأسه موافقاً وقال: ماذا عن جانب المال؟ وهل كانا على علاقة سيئة في الفترة الأخيرة؟

قاطعته الآنسة ماربل: آه، لكنهما لم يكونا كذلك.

– هل أنت متأكدة من هذه الحقيقة؟

– لو تشاجرا لكان من شأن الجميع معرفة ذلك! كان من شأن الخادمة غلاديس أن تنشر الخبر في القرية في الحال.

قال المفتش بصوت واهن: ربما لم تعرف...

ولكنه تلقى ابتسامة شفقة رداً على عبارته، وأكملت الآنسة ماربل حديثها: ثم هناك معسكر التخمينات الآخر الذي يتهم تيد جيرارد. إنه شاب وسيم، وأخشى أن تأثير الوسامة على المرء أكبر مما ينبغي! لقد دار الحديث حوله بالطبع، وقد كان يأتي لرؤيتها كثيراً. رغم أن السيدة سبينلو أخبرتني بنفسها أنه كان عضواً في ما يسمونه جماعة أكسفورد كما أظن. إنها حركة دينية، وأظن

أن أعضاءها شديدو الإخلاص والاستقامة، وقد تأثرت السيدة سبينلو بهذا الأمر كله.

سحبت الآنسة ماربل نَفَساً ثم أكملت: كما أنني واثقة من عدم وجود سبب للاعتقاد بوجود شيء آخر في هذا الأمر، ولكنك تعرف طبيعة الناس. كثير من الناس مقتنعون بأن السيدة سبينلو قد افتتنت بالشاب وأقرضته مبلغاً كبيراً من المال. كما أن من الصحيح تماماً أنه شوهد بالفعل في المحطة في ذلك اليوم. لقد كان في القطار... قطار الساعة الثانية وسبع وعشرين دقيقة، ولكن كان من السهل تماماً –بالطبع– أن ينزل من الجانب الآخر من القطار ويذهب من خلال تلك الثغرة في الشبك الحديدي، ثم يتسلق السياج ولا يخرج من مدخل محطة القطار أبداً.

– وهل يقول الناس شيئاً آخر؟

– إنهم يرون أن الملابس التي كانت السيدة سبينلو ترتديها كانت غريبة.

– غريبة؟

قالت الآنسة ماربل وقد احمرّ وجهها: كانت ترتدي رداءً كذلك الذي يُلبَس بعد الحمّام، وليس ثوباً عادياً. وربما كان مثل هذا الأمر ذا مغزى عند بعض الناس.

– أتظنينه ذا مغزى بالفعل؟

– آه، لا، لا أظن ذلك. أعتقد أنه كان أمراً طبيعياً تماماً.

– أتحسبينه كان طبيعياً؟

– في ظل تلك الظروف، نعم، أظنه كذلك.

كانت نظرة الآنسة ماربل فاترة ومتأملة.

قال المفتش سلاك: ربما يعطينا ذلك دافعاً آخر للزوج، وهو الغيرة.

– آه، لا، ليس من شأن السيد سبينلو أن يكون غيوراً أبداً. إنه ليس من النوع الذي يلاحظ الأمور. ولئن خرجت زوجته وتركت له رسالة على تلك الكرة القماشية التي تُغرز بها الدبابيس –مثلاً– لكانت تلك أول مرة يعرف بها بوجود مثل تلك الكرة.

كان المفتش سلاك متحيراً من الطريقة الجدية ذات المغزى التي كانت تنظر بها إليه. رأى أن القصد من كل حديثها هو التلميح إلى شيء لم يفهمه. وأخيراً قالت بشيء من التشديد: ألم تعثروا أنتم على أي دليل أيها المفتش... في مكان الجريمة؟

– الناس لا يتركون، في هذه الأيام، بصمات أصابعهم يا آنسة ماربل.

– ولكني أظن هذه كانت جريمة قتل من الطراز القديم.

قال سلاك بحدة: ماذا تقصدين بهذا؟

قالت الآنسة ماربل ببطء: أظن أن بوسع الشرطي بولك أن

يساعدك. فقد كان أول شخص يأتي إلي... إلى «مسرح الجريمة» كما يُقال.

* * *

كان السيد سبينلو يجلس على كرسي خشبي، وقد بدا شديد الحيرة. قال بصوته الرفيع الدقيق: ربما كان هذا مجرد خيال مني لما حدث بالطبع. إن سمعي ليس كما كان، ولكني ظننت أنني سمعت ولداً صغيراً يناديني قائلاً: "ياه، من هو الفاعل؟". وقد ترك ذلك لدي انطباعاً بأنه يظن أنني أنا... أنا الذي قتلت زوجتي العزيزة.

قالت الآنسة ماربل وهي تقطع وردة ذابلة: كان قصده إيصال ذلك الانطباع دون شك.

– ولكن ما الذي وضع هذه الفكرة في رأس هذا الطفل؟

تنحنحت الآنسة ماربل وقالت: لاشك أنه كان يستمع إلى آراء من هم أكبر منه.

– أتظنين... أتظنين حقاً أن الناس الآخرين يرون ذلك أيضاً؟

– نصف سكان سينت ميري ميد تماماً.

– ولكن يا سيدتي العزيزة، ما الذي يمكن أن يكون سبباً في ظهور هذه الفكرة؟ لقد كنت أحب زوجتي حباً خالصاً. صحيح أنها –للأسف– لم تتكيف مع العيش في الريف مثلما كنت

أتمنى، ولكن الاتفاق التام على كل موضوع أمر مستحيل. أؤكد لك أنني أشعر بفقدانها شعوراً شديداً.

- ربما. ولكن اسمح لي أن أقول إن ذلك لا يبدو عليك.

انتصب السيد سبينلو في جلسته وقال: يا سيدتي العزيزة، قبل عدة سنوات قرأت عن فيلسوف صيني توفيت زوجته التي كان يحبها، ولكنه واصل -بهدوء- قرع الجرس في الشارع كعادته... وأحسب أن تلك كانت تسلية صينية مألوفة. وقد تأثر الناس كثيراً بجَلَده وقوة احتماله.

- لكن رد فعل الناس في سينت ميري ميد مختلف تماماً. إن الفلسفة الصينية لا تروق لهم!

- ولكنك تفهمين؟

أومأت الآنسة ماربل برأسها وقالت: كان عمي هنري رجلاً غير عادي في ضبط نفسه، وكان شعاره هو: "لا تُظهر عواطفك أبداً". وكان هو الآخر يحب الأزهار كثيراً.

قال السيد سبينلو بشيء أشبه باللهفة: كنت أفكر في عمل تعريشة على الجانب الغربي للبيت. عرائش ذات ورود قرنفلية، وهناك أزهار بيضاء نجمية الشكل لا يحضرني اسمها الآن...

قالت الآنسة ماربل بنبرة من تتحدث مع حفيد أختها ابن الثلاثة الأعوام: عندي كتاب جميل جداً فيه صور، ربما سرّك أن تتصفحه... علي أن أذهب إلى القرية.

تركت الآنسة ماربل السيد سبينلو جالساً في الحديقة مع الكتاب ذي الصور وصعدت إلى غرفتها فلفّتْ ثوباً في قطعة من الورق البني بسرعة، وغادرت البيت وسارت مسرعة إلى مكتب البريد.

كانت خيّاطة الملابس، الآنسة بوليت، تعيش في شقة فوق مكتب البريد. ولكن الآنسة ماربل لم تصعد إلى الشقة على الفور. كانت الساعة ما تزال الثانية والنصف فقط، وبعد دقيقة واحدة ستصل حافلة ماتش بنهام أمام مكتب البريد، وقد كان وصولها يُعَدّ واحداً من الأحداث اليومية في قرية سينت ميري ميد. أسرعت موظفة البريد خارج المكتب تحمل أكياساً، أكياساً تتعلق بالجانب التجاري من عملها؛ حيث أن مكتب البريد كان يتعامل أيضاً بالحلوى والكتب الرخيصة ولعب الأطفال.

وبقيت الآنسة ماربل في مكتب البريد وحدها نحواً من أربع دقائق، ولم تصعد إلى شقة الآنسة بوليت إلاّ بعد عودة موظفة البريد إلى موقعها. وفي الطابق العلوي أوضحت للآنسة بوليت أنها تريد تغيير ثوبها الرمادي القديم بحيث تعمل منه طرازاً جديداً إن أمكن. وقد وعدت الآنسة بوليت أن ترى ما يمكن عمله.

* * *

دهش قائد الشرطة قليلاً عندما حملوا له اسم الآنسة ماربل. دخلت عليه وهي تعتذر قائلة: أنا آسفة جداً... آسفة جداً جداً على إزعاجك. أعرف أنك مشغول جداً، ولكنك كنتَ دوماً شديد اللطف يا كولونيل ميلشيت، وقد أحسستُ أن من الأفضل

أن آتي إليك بدلاً من المفتش سلاك. لسبب واحد وهو أنني أكره أن يقع الشرطي بولك في أية متاعب. وبصراحة أظن أنه كان يحب ألاّ يلمس شيئاً على الإطلاق.

احتار الكولونيل ميلشيت بعض الشيء وقال: بولك؟ أليس هو شرطي القرية؟ ماذا كان يفعل؟

– لقد التقط دبوساً، وكان مغروساً في سترته. وقد خطر لي –وقتها– أن من المحتمل أن يكون قد التقطه عن الأرض في بيت السيدة سبينلو.

– تماماً، تماماً. ولكن ما هو الدبوس في نهاية الأمر؟ الواقع أنه التقط الدبوس عن الأرض قرب جثة السيدة سبينلو، وقد جاء وأخبر سلاك عنه بالأمس... وقد فهمتُ أنك أنت التي دفعتِه للإبلاغ عنه، أليس كذلك؟ ما كان له أن يلمس شيئاً بالطبع، ولكن كما قلت، ما هي أهمية الدبوس؟ كان مجرد دبوس عادي... من النوع الذي تستخدمه أية امرأة.

– آه، لا يا كولونيل ميلشيت، أنت مخطئ في هذا. ربما بدا مجرد دبوس عادي في أعين الرجال، ولكنه لم يكن كذلك. كان دبوساً خاصاً، دبوساً رفيعاً جداً. إنه من النوع الذي تشتريه في علبة... النوع الذي يستخدمه الخياطون في الغالب.

حدّق ميلشيت إليها وقد بدأ شيء من الفهم يراوده، فأومأت الآنسة ماربل برأسها عدة مرات بلهفة وقالت: نعم، بالطبع. يبدو لي الأمر واضحاً تماماً. لقد كانت القتيلة تلبس الرداء المنزلي

الذي يسهل نزعه لأنها كانت بصدد قياس ثوبها الجديد. وقد ذهبت إلى الغرفة الأمامية حيث قالت لها الآنسة بوليت شيئاً عن القياس، ثم وضعت متر القياس حول رقبتها... ثم لم يكن عليها إلاّ أن تشده، وهو أمر سهل جداً كما سمعت! ومن شأنها بعد ذلك أن تخرج وتغلق الباب وتقف في الخارج تدقه وكأنها قد وصلت لتوها. ولكن الدبوس يُثبت أنها كانت موجودة داخل البيت أصلاً.

– وهل الآنسة بوليت هي التي خابرت سبينلو؟

– نعم، من مكتب البريد في الساعة الثانية والنصف، في الوقت الذي تصل فيه الحافلة ويكون مكتب البريد خالياً.

– ولكن يا سيدتي العزيزة، لماذا؟ لماذا بالله عليك؟ لا يمكنك أن ترتكبي جريمة قتل دون وجود دافع.

– أظن –من كل ما سمعته– أن الجريمة تعود إلى زمن بعيد يا حضرة الكولونيل. هذا يذكرني باثنين من أولاد أعمامي، أنتوني وغوردن. كان أنتوني ينجح في كل عمل يقوم به، ولكن أمور المسكين غوردن كانت تجري على عكس ما يريد دائماً؛ فكانت خيوله تكبو في السباقات وأسعار أسهمه تنخفض وعقاراته تفقد قيمتها. وأنا أرى أن المرأتين مشتركتان في الأمر معاً.

– أي أمر؟

– السرقة... منذ وقت طويل. سرقة مجوهرات زمرد ثمينة

جداً، كما سمعت. خادمة السيدة والخادمة غير المتفرغة. لأن شيئاً واحداً لم يتم تفسيره... فعندما تزوجت الخادمة البستاني، كيف حصلا على المال لافتتاح محل لبيع الزهور؟ الإجابة هي أن المال كان حصتها من الـ... من الغنيمة. وبعد ذلك كل شيء كانت تفعله كان ينجح، والمال يصنع المال. ولكن الأخرى، خادمة السيدة، كانت غير محظوظة دون شك، إذ ساءت معها الأمور إلى حدٍّ أصبحت معه مجرد خياطة ملابس في قرية! ثم التقتا ثانية. وأظن أن اللقاء كان طبيعياً تماماً في البداية، إلى أن ظهر السيد تيد جيرارد على مسرح الأحداث. كانت السيدة سبينلو تعاني أصلاً من وخز الضمير، ولاشك أن هذا الشاب قد حثها على أن «تواجه نفسها» وأن تتطهر من ذنوبها. وأظن أنها تأهبت لفعل ذلك، ولكن الآنسة بوليت لم تر الأمر على هذا النحو. كل ما رأته هو أنها قد تدخل السجن بسبب سرقة ارتكبتها منذ أمد بعيد؛ ولذلك فقد قررت أن تضع حداً لكل هذا. وأخشى أنها كانت دائماً امرأة شريرة، ولا أظنها كانت ستهتم أبداً لو تم إعدام ذلك السيد اللطيف الغبي سبينلو.

قال الكولونيل ميلشيت ببطء: يمكننا التحقق من نظريتك هذه... إلى حد ما. وذلك بمطابقة هوية الآنسة بوليت هذه مع خادمة السيدة أبركرومبي، ولكن...

طمأنته الآنسة ماربل: سيكون هذا سهلاً جداً. إنها من النوع الذي ينهار على الفور إذا ما ووجهت بالحقيقة. ثم إنني أحضرت متر القياس الذي تستخدمه. لقد... لقد أخذتُه بالأمس عندما

كنت أقيس ثوباً. وعندما تفقده وتظن أنه بيد الشرطة... فسوف ترى أنه سيثبت القضية عليها بطريقة ما. إنها امرأة جاهلة تماماً!

ابتسمت له مشجعة وقالت: أؤكد لك أنك لن تجد أي مشكلة.

كانت هذه نفس النبرة التي طمأنته بها عمته الحبيبة ذات يوم عندما أكدت له أنه لن يفشل في امتحان دخول كلية ساندهيرست.

وقد نجح في الامتحان فعلاً.

* * *

قضية وكيلة البيت

تنبيه وتحذير

من محرر الطبعة العربية

من القراء من يحب أن يستعجل بالقفز إلى نهاية الرواية التي يقرؤها، فتراه يبدأ بالقراءة حتى إذا استحكمت عقدة الرواية وزادت الأحداث تشويقاً انصرف إلى الفصل الأخير فقرأه وكشف سر اللغز ثم عاد يكمل الرواية من حيث كان.

ومن القراء، بل لعل هؤلاء هم الأكثر (وأنا منهم)، من يحب أن يمضي مع أحداث الرواية واحداً بعد آخر ويمر بعقدها وهي تتراكم لتصل إلى أوجها في لحظة الحل المفاجئة، فإذا ما عرف نهاية القصة عرضاً أو تطوع أحدهم ليخبره بها فسد استمتاعه بها وزهد في إكمالها.

فإن كنتَ من الصنف الأول فامضِ في قراءة هذه القصة القصيرة في كل حال، أما إذا كنت -مثلي- من الآخرين فهذا التحذير موجَّه إليك. فإن كنت لم تقرأ بعد رواية «ليل لا ينتهي» (وهي ستصدر باللغة العربية في نفس الوقت الذي تصدر به هذه المجموعة القصصية التي بين يديك) فلا تقرأ هذه القصة (قضية

وكيلة البيت) وأَرجئْ قراءتها حتى تفرغ من تلك؛ والسبب أن هذه القصة القصيرة (قضية وكيلة البيت) ليست سوى صورة ملخصة لتلك الرواية الطويلة الممتعة (ليل لا ينتهي)، فإن قرأت القصة القصيرة هذه فسدت متعة قراءتك للرواية الطويلة تلك.

أما لماذا صنعت أغاثا كريستي ذلك؛ أي: ما الذي حملها على كتابة قصة قصيرة ثم تعديلها لتصبح رواية طويلة بعد ذلك بسنوات؟ فهذا ما لست أدري له سبباً، ولعلنا نجد ذكراً له في كتاب ذكرياتها عند ترجمته كاملاً إلى اللغة العربية إن شاء الله. ولكن قد يبرر هذا الأمرُ عدمَ إقدام أغاثا على نشر هذه القصة القصيرة في أي مجموعة قصصية في حياتها، ولا ندري إن كان لها سبب منعها من نشر القصص السبع الباقيات كذلك.

«المحرر»

* * *

سأل الطبيب هيدوك مريضته: كيف تسير الأمور اليوم؟

ابتسمت الآنسة ماربل له ابتسامة باهتة من فوق الوسادة وقالت: أظنني أحسن حالاً، لكني أشعر بالاكتئاب الشديد ولا أملك إلاّ أن أفكر كم كان من الأفضل لي لو مت؛ فأنا في النهاية امرأة عجوز، ولا أحد يريدني أو يهتم بأمري.

قاطعها الدكتور هيدوك بتلقائيته واقتضابه المعتاد: نعم، نعم. هذا رد فعل طبيعي بعد هذا النوع من الزكام. أنت بحاجة إلى شيء يلهيك عن نفسك... منشط ذهني.

تنهدت الآنسة ماربل وهزت رأسها، فأكمل الدكتور هيدوك قائلاً: وفوق ذلك، فإنني قد أحضرت دوائي معي!

ثم ألقى بمغلف طويل على السرير قائلاً: هذا ما يناسبك تماماً. إنه لغز من النوع الذي تحبّين.

بدا الاهتمام على الآنسة ماربل وقالت: لغز؟

قال الطبيب وقد احمرّ وجهه قليلاً: إنها محاولة أدبية لي.

لقد حاولت عمل قصة عادية فيها: «قال» و«قالت» و«ظنت الفتاة»... إلى آخر هذه التعبيرات. لكن وقائع القصة حقيقية.

– ولكن لماذا تسميها لغزاً؟

ابتسم الدكتور هيدوك وقال: لأن تفسيرها عائد إليك. أريد أن أرى إن كنت ذكية كما كنت دائماً أم لا.

وبهذه العبارة الختامية تركها.

وأخذت الآنسة ماربل نسخة القصة وبدأت تقرأ:

* * *

سألت الآنسة هارمون بلطف: وأين العروس؟

كانت القرية كلها متلهفة على رؤية الزوجة الشابة الغنية الجميلة التي أحضرها معه هاري لاكستون من الخارج، وقد ساد شعور متسامح عام بأن هاري (ذلك الشاب الوغد) قد حالفه الحظ أخيراً.

لقد شعر الجميع –دوماً– بالتسامح إزاء هاري. حتى أصحاب النوافذ الذين عانوا من استخدامه العشوائي للمقلاع كان سخطهم يتلاشى أمام تعبير هاري البائس عن ندمه. كان قد كسر نوافذ، وسرق فاكهة من البساتين، وسرق الأرانب، ثم وقع أخيراً في الدّين وتورط مع ابنة بائع التبغ في القرية... وقد تم إخراجه من المشكلة وإرساله إلى أفريقيا. وقد تمتمت القرية ممثلة بعوانسها

المسنّات قائلة: حسناً، إنها زلات الشباب، وسوف يعتدل!

والآن، ها قد عاد الابن الضال... ولكنه لم يعد متألماً حزيناً، بل منتصراً. لقد «وُفّق» هاري لاكستون كما يقول العامة؛ فقد عدّل نفسه وعمل جاهداً، وفي النهاية التقى بفتاة فرنسية شابة كانت تملك ثروة كبيرة ونجح في إيقاعها في شباكه.

كان بوسع هاري أن يعيش في لندن أو يشتري بيتاً في منطقة صيد جميلة، ولكنه فضّل العودة إلى القرية التي شعر أنها وطنه، وهناك اشترى، بطريقة رومنسية جداً، العزبة المهجورة التي قضى طفولته في البيت الصغير الملحق بها.

كان البيت المسمى كينغزدين هاوس شاغراً لما يقرب من سبعين سنة. وقد خرب هذا البيت تدريجياً، وعاش وكيل البيت الكهل وزوجته في إحدى زواياه الصالحة للسكنى. كان منزلاً واسعاً مهيباً ليس فيه جمال، وقد نمت الحشائش والشجيرات دونما انتظام في حدائقه وطوقته الأشجار من كل النواحي.

أما البيت الصغير الملحق به فقد كان جميلاً بسيطاً، وقد استأجره الميجور لاكستون والد هاري لسنوات عديدة. وعندما كان هاري صبياً كان يتجول في الأراضي التابعة لمنزل كينغزدين حتى عرف كل شبر في الغابات المتشابكة، وكان البيت القديم نفسه قد فتنه دوماً.

وقد مات الميجور لاكستون قبل بضع سنين ولذلك كان الرأي السائد هو أن هاري لم يعد يجد ما يربطه بالبيت حتى يعود

إليه. ومع ذلك فقد أحضر هاري عروسه إلى البيت الذي قضى فيه صباه، وقد هُدم منزل كينغزدين تماماً وانقضّ جيشٌ من البنّائين والمتعهدين على المكان، وخلال فترة قصيرة تكاد تكون معجزة لا تحققها إلاّ الثروة ظهر بيت جديد أبيض يلمع بين الأشجار.

ثم جاء بعدهم حشد من البستانيين، وبعدهم جاء موكب من الشاحنات التي تحمل الأثاث. كان البيت جاهزاً، ووصل الخدم، وفي النهاية وصلت سيارة ليموزين فاخرة لتُنزل هاري وزوجته عند الباب الأمامي للمنزل.

وهرعت القرية للزيارة، وأرسلت السيدة برايس (التي تملك أكبر منزل في القرية وتعتبر نفسها قائدة المجتمع في المنطقة) بطاقات دعوة لحضور حفلة «لقاء العروس».

كان حدثاً عظيماً، واشترت سيدات كثيرات أثواباً جديدة لهذه المناسبة. وشعر الجميع بالإثارة والفضول والتلهف لرؤية هذه المخلوقة الخرافية. وقد قالوا إن الأمر كله أشبه بقصص الجنيات!

ألقت الآنسة هارمون (العانس القوية ذات الوجه المسفوع) بسؤالها عن العروس وهي تشق لنفسها طريقاً عبر باب غرفة الاستقبال المزدحمة، وتطوعت الآنسة برينت (العانس النحيلة حادة الطبع) بإعطاء المعلومات: آه يا عزيزتي! إنها فاتنة تماماً وذات أخلاق رائعة، كما أنها صغيرة تماماً. إنها تجعل المرء يشعر -حقاً- بالحسد لرؤية امرأة تملك كل شيء؛ الجمال

والغنى والحسب. إنها متميزة تماماً، ليس فيها ما هو مُبتذل أبداً... وهاري يبدو شديد التعلق بها!

قالت الآنسة هارمون: آه، ولكنها الأيام الأولى فقط!

ارتعش أنف الآنسة برينت الرفيع ارتعاشة إعجاب وقالت: آه يا عزيزتي، أتظنين حقاً أنهما...

- كلنا نعرف من هو هاري.

- كلنا نعرف ما **كان** هاري! ولكني أظن الآن...

- آه، الرجال لا يتغيرون. من كان منهم محتالاً منحلاً ذات يوم يظل دوماً محتالاً منحلاً... إنني أعرفهم!

بدت الآنسة برينت أكثر حيوية بكثير وقالت: "يا للفتاة المسكينة! نعم، أحسبها ستواجه متاعب معه. ينبغي -حقاً- أن يحذرها أحدهم. أتساءلُ إن كانت قد سمعَتْ شيئاً عن القصة القديمة؟". ثم مضت قائلة: يبدو من الإجحاف الشديد ألاّ تعرف شيئاً. وهو أمر محرج جداً، وخصوصاً مع وجود صيدلي واحد في القرية.

ذلك أن ابنة بائع التبغ سابقاً قد تزوجت الآن السيد إيدج صاحب الصيدلية.

قالت الآنسة برينت: سيكون من الأقل حرجاً أن تتعامل السيدة لاكستون مع صيدلية بوتس في قرية ماتش بينهام.

- أظن أن هاري لاكستون سيقترح عليها هذا بنفسه.

ومرة أخرى تبادلت المرأتان نظرة ذات دلالة، ثم قالت الآنسة هارمون: ولكني أعتقد -حازمة- أنها يجب أن تعرف.

* * *

قالت كلاريس فين تخاطب عمها الدكتور هيدوك وهي ساخطة: وحوش... بعض الناس وحوش تماماً!

نظر إليها مستغرباً.

كانت فتاة طويلة سمراء وسيمة، وكانت ودودة ومندفعة. وقد التمعت الآن عيناها البنيتان الواسعتان غضباً وهي تقول: كل هؤلاء الثرثارات... يقلن أشياء، ويلمِّحن إلى أشياء.

- بخصوص هاري لاكستون؟

- نعم، حول علاقته مع ابنة بائع التبغ.

- آه، ذاك!

رفع الطبيب كتفيه بلامبالاة وقال: إن لكثير من الشباب علاقات من هذا النوع.

- هذا صحيح بالطبع. وينتهي بعد ذلك كل شيء، فلماذا الإصرار على العزف على هذا الوتر الآن وفتح صفحات طويت منذ عدة سنوات؟ ذلك أشبه بالغول الذي يحتفي بجثث الموتى.

- أظن -يا عزيزتي- أن الأمر يبدو لك هكذا بالفعل. ولكن ليس لديهن إلاّ القليل مما يمكن الحديث عنه هنا، ولذلك فإنهن يمِلنَ للعيش على فضائح الماضي. ولكني أتوق لمعرفة سبب انزعاجك الشديد من هذا الأمر؟

عضت كلاريس فين على شفتيها قليلاً واحمرّ لونها، ثم قالت بصوت مكبوت: إنهما... إنهما يبدوان سعيدين للغاية؛ أعني لاكستون وزوجته. إنهما شابان وكل منهما يحب صاحبه وكل شيء جميل بالنسبة لهما. أكره أن أرى إفساد هذه العلاقة بالهمس والتلميح والغمز واللمز.

- فهمت.

أكملت كلاريس: كان يتحدث معي قبل قليل. إنه سعيد جداً ومتلهف ومنفعل... نعم، منفعل لأنه قد حقق أعظم أمنية عنده ولأنه أعاد بناء كينغزدين. إنه كالطفل تماماً، أما هي فلا أظن أن مشكلة قد حدثت في حياتها على الإطلاق، فقد كانت تحصل على كل شيء دائماً. لقد شاهدتَها أنت، فما رأيك فيها؟

لم يجبها الطبيب على الفور؛ فبالنسبة للآخرين قد تكون لويز لاكستون مادة للحسد. فهي الابنة المدللة ذات الثروة، وهي لم تذكِّره إلاّ بمقطع من أغنية شعبية سمعها قبل سنوات طويلة تقول كلماتها: **فتاة غنية مسكينة**... جسد ضئيل ناعم، وشعر متجعد بلون الكتان يلتف حول وجهها، وعينان زرقاوان واسعتان حزينتان.

* * *

كانت لويز مجهدة قليلاً. لقد أتعبها الطابور الطويل من المهنئين وكانت ترجو أن يكون وقت المغادرة قد اقترب. حتى هاري ربما قال ذلك أيضاً بعد مضي كل هذا الوقت. ونظرت إليه بطرف عينها... كل هذا القوام الطويل والكتفين العريضين، وكل هذه السعادة المتلهفة بهذه الحفلة الفظيعة المملّة.

فتاة غنية مسكينة...

* * *

– أوف!

كانت تلك زفرة ارتياح، والتفت هاري لينظر إلى زوجته مسروراً. كانا عائدين من الحفلة في السيارة، وقد قالت: يا لها من حفلة فظيعة!

ضحك هاري قائلاً: نعم، فظيعة جداً. لا تهتمي كثيراً يا حلوتي، ولكن كان علينا الحضور. كل هؤلاء العجائز الثرثارات يعرفنني منذ أن كنت أعيش هنا صبياً، وقد كان من شأنهن أن يحسسن بخيبة أمل كبرى لو لم يرينك عن قرب.

كشرت لويز وقالت: هل سيتوجب علينا أن نراهنّ كثيراً؟

– ماذا؟ آه، لا. سيأتين لزيارتك زيارات احتفاء ومعهن الهدايا وستردين الزيارات، وبعد ذلك لا حاجة تدعوك للقلق. يمكنك دعوة صديقاتك أو القيام بما تشائين.

قالت لويز بعد وقت قصير: ألا يوجد أي شخص مسلٍّ يعيش هنا؟

– آه، نعم. توجد هنا عائلة الكونت، مع أنك ستجدينهم مملين بعض الشيء أيضاً؛ إذ يغلب عليهم الاهتمام بالأزهار والكلاب والخيل. ستمارسين ركوب الخيل بالطبع، وستجدين متعة بذلك. يوجد في إيغلنتن حصان أريد أن أريك إياه... إنه جميل ومدرب تماماً وليس فيه أي عيب، وهو مفعم بالحيوية.

خفّف هاري سرعة السيارة حتى ينعطف بها ويعبر بوابة كينغزدين، وفجأة أدار مقود السيارة وأطلق بعض السباب عندما قفزت في وسط الطريق امرأة غريبة الشكل نجح في تجنبها بصعوبة. وقد وقفت هناك تلوح لهما بقبضتها وتصرخ بهما.

أمسكت لويز بذراعه وقالت: من هي هذه... هذه العجوز المخيفة؟

ظهر تعبير الغضب على وجه هاري وقال: إنها العجوز مورغاترويد، وقد كانت هي وزوجها وكيلين يحرسان البيت القديم. لقد عاشا هنا قرابة ثلاثين عاماً.

– لماذا تلوح لك بقبضتها؟

احمرّ وجه هاري وقال: لقد... لقد استاءت من هدم البيت، وقد صُرفت من عملها بالطبع. وزوجها كان قد توفي قبل سنتين، ويقولون إنها صارت غريبة الأطوار قليلاً بعد وفاته.

– أهي... أهي شديدة الفقر؟

كانت أفكار لويز غامضة ودرامية إلى حد ما؛ فالغنى يمنع صاحبه من الاتصال بعالم الواقع.

غضب هاري وقال: يا إلهي! أية فكرة هذه يا لويز؟ لقد أعطيتها راتباً تقاعدياً... وكان مجزياً أيضاً، ووجدت لها بيتاً جديداً ووفرت لها كل شيء.

سألته لويز متحيرة: ولماذا تهتم المرأة إذن؟

قال هاري وهو عابس معقود الحاجبين: آه، وما أدراني؟ جنون! كانت تحب البيت.

– ولكنه كان متداعياً، أليس كذلك؟

– بالطبع... كان منهاراً، والماء يتسرب من سقفه... ولم يكن آمناً. ومع ذلك أظن أن البيت كان يعني لها شيئاً ما، فقد عاشت فيه فترة طويلة. آه، لا أعرف! أظن أن هذه العجوز معتوهة.

قالت لويز بشيء من عدم الارتياح: إنها... أظن أنها دعت علينا باللعنة! ليتها لم تفعل ذلك يا هاري.

* * *

بدا للويز أن الصورة الحاقدة لعجوز مجنونة قد روّعتْ بيتها الجديد وسممته، وعندما كانت تخرج بالسيارة أو تركب الحصان

أو تخرج لتتمشى مع الكلاب كانت هناك بانتظارها نفس الصورة. الجسد المنحني على نفسه، والقبعة البالية تتدلى من تحتها خصلات شعر أبيض، والتلفظ البطيء بالشتائم واللعنات.

باتت لويز تعتقد أن هاري كان مصيباً؛ فالعجوز مجنونة. ولكن ذلك لم يجعل الأمور أكثر سهولة! لم تأت السيدة مورغاترويد إلى البيت أبداً، ولم تستخدم عبارات تهديد واضحة، ولا هي استخدمت العنف. لقد اكتفت بالبقاء دوماً خارج بوابة البيت، وما كان من شأن اللجوء إلى الشرطة أن يحقق أية فائدة، وقد كان هاري يعارض –على أية حال– اللجوء إلى هذا الإجراء؛ إذ قال إن من شأن ذلك أن يجعل أهل القرية يتعاطفون مع هذه المعتوهة العجوز. ولم يهتم بالأمر كما اهتمت لويز، بل قال لها: لا تقلقي من هذا الأمر يا حبيبتي؛ سوف تسأم من هذه الحركات السخيفة. ربما كانت تحاول تجربة هذا الأسلوب فقط.

– ليست مجرد محاولة يا هاري. إنها... إنها تكرهنا! بوسعي أن أشعر بذلك. إنها تدعو علينا بالشر.

– إنها ليست ساحرة يا حبيبتي، رغم أنها تبدو كساحرة! لا تبالغي في هذا الأمر.

سكتت لويز. لقد بدأت تحس الآن، وقد مضت الانفعالات الأولى التي رافقت عملية الاستقرار، إحساساً غريباً بالوحشة والفراغ. لقد اعتادت الحياة في لندن والريفيرا، ولم تكن لديها معرفة أو تذوق لحياة الريف الإنكليزي، وكانت جاهلة في أمور البستنة (باستثناء الخطوة الأخيرة المتمثلة في قطف الأزهار)، ولم

تكن تهتم حقاً بالكلاب، وقد ضجرت من أولئك الجيران الذيم التقتهم.

كان أكثر ما تستمتع به هو ركوب الخيل، أحياناً مع هاري، وأحياناً وحدها عندما يكون مشغولاً في أمور البيت. كانت تقود حصانها خبباً خلال الغابات وعلى الممرات الضيقة مستمتعة بالخطوات الهادئة لحصانها الجميل الذي اشتراه هاري لها، ومع ذلك فحتى الحصان الكستنائي الحساس جداً (برينس هال) كان يخجل ويحمحم وهو يمر بسيدته مبتعداً عن العجوز الحاقدة.

وذات يوم تشجعت لويس. كانت قد خرجت تتمشى ومرّت بجانب السيدة مورغاترويد متظاهرة بأنها لم تلاحظها، ولكنها استدارت فجأة وعادت نحوها مباشرة وقالت بصوت لاهث قليلاً: ما الأمر؟ ما الذي تريدينه؟

طرفت عينا العجوز. كانت ذات وجه ماكر غجري أسمر وخصلات من الشعر الرمادي وعينين غائمتين شكّاكتين. وقد تساءلت لويز إن كانت هذه العجوز تتعاطى المخدرات.

تكلمت بصوت منتحب ولكنه متوعد: تسألينني ماذا أريد؟ يا له من سؤال! أريد ما أُخذ مني. من الذي أخرجني من كينغزدين؟ لقد عشت فيه فتاة وامرأة قرابة أربعين عاماً، وكان إخراجي منه فعلة نكراء، وستجلب عليك وعليه حظاً أسود سيئاً!

قالت لويز: لقد حصلتِ على بيت جميل و...

ثم سكتت إذ لوحت العجوز بذراعيها في الهواء وهي تصيح:

وما فائدة هذا لي؟ إن ما أريده هو بيتي وموقدي الذي جلست بجانبه سنوات طويلة. وبالنسبة لكما فإنني أقول لكما إنكما لن تشعرا بالسعادة في بيتكما الجديد الجميل. سيحل عليكما الحزن الأسود... الحزن والموت ولعنتي! قبّح الله وجهك الجميل!

ابتعدت لويز وانطلقت بخطوات سريعة متعثرة، وفكرت قائلة لنفسها: **ينبغي أن أرحل من هنا... يجب أن نبيع البيت؛ يجب أن نرحل!**

في تلك اللحظة بدا لها مثل هذا الحل سهلاً، ولكن فاجأها عدم الاستيعاب المطلق الذي أبداه هاري، فقد صاح قائلاً: نترك هذا المكان؟ نبيع البيت؟ بسبب تهديدات عجوز معتوهة؟ لا بد أنك مجنونة.

– لا، لست مجنونة. ولكنها... ولكنها تخيفني، أعرف أن شيئاً سيحدث.

قال هاري لاكستون عابساً: اتركي أمر السيدة مورغاترويد لي. أنا سأحل أمرها.

* * *

نشأت صداقة بين كلاريس فين ولويز لاكستون. كانت الفتاتان في سن متقاربة، رغم اختلافهما في الشخصية والذوق، وقد وجدت لويز الطمأنينة في صحبة كلاريس. كانت كلاريس كثيرة الاعتماد على نفسها شديدة الثقة بها، وقد ذكرت لويز لها

أمر السيدة مورغاترويد وتهديداتها، ولكن كلاريس اعتبرت المسألة مزعجة أكثر منها مخيفة، وقالت: مثل هذا التصرف غبي جداً، وهو عمل مزعج جداً بالنسبة لك.

– أتدرين يا كلاريس... إنني أشعر بالخوف الشديد أحياناً. قلبي يخفق خفقات شديدة.

– هراء! يجب ألاّ تدعي فكرة سخيفة كهذه تفسد حياتك؛ فهي سرعان ما ستسأم من تصرفاتها.

بقيت لويز ساكتة بعض الوقت، فقالت كلاريس: ما الأمر؟

سكتت لويز لحظات ثم جاء ردها سريعاً: أكره هذا المكان... أكره العيش هنا! الغابة وهذا البيت والصمت المطبق أثناء الليل وأصوات البوم الغريبة، والناس، وكل شيء!

– الناس... أي ناس؟

– الناس في القرية. أولئك النسوة المسنّات الثرثارات الفضوليات.

قالت كلاريس بحدة: ماذا قلن؟

– لا أعرف. لا شيء على وجه الخصوص، ولكن تفكيرهن بغيض. عندما تتحدثين إليهنّ تشعرين بأن عليك ألاّ تثقي بأحد.. أبداً.

قالت كلاريس بقوة: انسي أمرهن؛ فليس لديهن ما يفعلنه

سوى الثرثرة والقيل والقال... كما أن معظم ما يقلنه يكون من اختراعهن.

قالت لويز: ليتنا لم نأت إلى هنا أبداً. ولكن هاري يحب المنطقة كثيراً.

ثم هدأ صوتها فيما فكرت كلاريس قائلة لنفسها: "لَكَم تحبه!". ثم قالت فجأة: يجب أن أذهب الآن.

– سأعيدك بالسيارة. تعالي لزيارتي قريباً.

أومأت كلاريس برأسها، وأحست لويز بالارتياح بسبب زيارة صديقتها الجديدة. وقد سُرّ هاري إذ وجدها أكثر بهجة، ومنذ ذلك الوقت كان يحثها على دعوة كلاريس إلى البيت كثيراً.

ثم قال ذات يوم: عندي أخبار سعيدة لك يا حبيبتي.

– آه، ماذا؟

– لقد عالجت موضوع السيدة مورغاترويد. إن لديها ولداً في أميركا، وقد رتبتُ أمر سفرها للانضمام إليه، وسأدفع تكاليف سفرها.

– آه، هذا رائع يا هاري! أظن أنني سأحب هذا المنزل في النهاية.

– ستحبينه؟ إنه أروع بيت في العالم!

ارتعدت لويز قليلاً؛ فهي لم تستطع أن تحرر نفسها من خوفها من الخرافات بسهولة.

* * *

لئن كانت سيدات القرية قد انتظرن متعة إفشاء معلومات عن ماضي هاري إلى عروسه، فإنهن قد حُرمنَ من هذه المتعة نتيجة لتصرف هاري لاكستون الفوري.

كانت الآنسة هارمون وكلاريس فين في محل السيد إيدج، وكانت إحداهما تشتري كرات مقاومة العث والأخرى تشتري دواء عندما دخل هاري لاكستون وزوجته.

وبعد تحية السيدتين ذهب هاري إلى الطاولة وطلب من البائع فرشاة أسنان، ولكنه سكت في وسط كلامه وصاح بحماسة: حسناً، انظروا من يوجد هنا! إنها بيلا.

ابتسمت السيدة إيدج له بعد أن خرجت من الغرفة الخلفية مسرعة لتلبي طلبات الزبائن المزدحمين، وكشفت عن أسنانها الكبيرة البيضاء. كانت -فيما مضى- فتاة وسيمة سمراء، وهي ما تزال امرأة بادية الوسامة رغم زيادة وزنها وتجاعيد وجهها، وقد أجابته قائلة: نعم، إنها بيلا يا سيد هاري، وأنا مسرورة لرؤيتك بعد كل هذه السنين.

التفت هاري إلى زوجته وقال: بيلا هي محبوبتي القديمة يا لويز. لقد كنت غارقاً في حبها حتى أذني، أليس كذلك يا بيلا؟

قالت السيدة إيدج: هذا ما تقوله أنت.

ضحكت لويز وقالت: إن زوجي سعيد جداً برؤية جميع أصدقائه القدامى مرة أخرى.

- آه، نحن لم ننسك يا سيد هاري. إن التفكير في أنك قد تزوجت وبنيت بيتاً جديداً مكان ذلك البيت القديم أمر لا يُصدّق.

قال هاري: تبدين بصحة ممتازة.

ضحكت السيدة إيدج وقالت إنها في أحسن حال، ثم سألته عن فرشاة الأسنان التي يريدها.

قالت كلاريس في نفسها وهي ترقب تلك النظرة المتحيرة على وجه الآنسة هارمون: لقد أحسنت صنعاً يا هاري؛ فلقد أفسدت عليهن خططهن!

* * *

قال الدكتور هيدوك لابنة أخيه فجأة: ما كل هذا الهراء عن العجوز مورغاترويد وتجولها قرب كينغزدين وتلويحها بقبضتها؟

- ليس الأمر هراء؛ إنه حقيقة، وقد ضايق لويز كثيراً.

- أخبريها أن لا حاجة للقلق. فعندما كان مورغاترويد وزوجته حراساً للبيت لم يتوقفا عن التذمر من المكان ولم يبقيا فيه إلاّ لأن مورغاترويد كان يشرب الخمر ولم يستطع الحصول على وظيفة أخرى.

قالت كلاريس بارتياب: سأخبرها، ولكني لا أظن أنها ستصدقك. إن المرأة العجوز تصرخ بكل ما أوتيت من غضب.

– كانت دائماً تحب هاري عندما كان صبياً. لا أستطيع فهم الأمر!

– آه، سيتخلصان منها عمّا قريب. سيدفع هاري تكاليف سفرها إلى أميركا.

* * *

بعد ثلاثة أيام سقطت لويز عن ظهر حصانها وقُتلت.

وقد شهد الحادث رجلان كانا يركبان عربة الخبز. شاهدا لويز وهي تركب الحصان وتخرج عبر بوابة منزلها، وشاهدا المرأة العجوز تقفز وتقف في الطريق تلوح بذراعيها وتصرخ، وشاهدا الحصان وهو يجفل وينحرف ثم ينطلق في الطريق بأقصى سرعته كالمجنون، ملقياً بلويز لاكستون من فوق رأسه.

وقف أحدهما عند لويز التي فقدت وعيها لا يعرف ماذا يفعل، بينما أسرع الآخر إلى البيت لطلب المساعدة. وجاء هاري لاكستون مسرعا شاحب الوجهه، وقد خلعوا أحد أبواب العربة وحملوها عليه إلى البيت. ولكنها ماتت دون أن تستعيد وعيها وقبل أن يصل الطبيب.

(نهاية مخطوطة الدكتور هيدوك)

* * *

عندما وصل الدكتور هيدوك في اليوم التالي سرّه أن يرى احمراراً في وجنة الآنسة ماربل ومزيداً من الحيوية في تصرفاتها. بادرها قائلاً: حسناً، ما هو الحكم؟

عارضته الآنسة ماربل بقولها: بل ما هي المشكلة يا دكتور هيدوك؟

– آه، يا سيدتي العزيزة! هل يتوجب عليّ أن أخبرك بذلك؟

– أظن أن المشكلة تكمن في السلوك الغريب لتلك المرأة. لماذا تصرفت ذلك التصرف الغريب؟ إن الناس يتضايقون من إخراجهم من بيوتهم القديمة، لكنه لم يكن بيتها، بل إنها كانت دائمة الشكوى والتذمر منه عندما كانت تعيش فيه. نعم إنه يبدو أمراً مريباً جداً. ما الذي حصل لها بالمناسبة؟

– هربت إلى ليفربول، فقد أرعبها الحادث ورأت أن تنتظر سفينتها هناك.

– الأمر كله يلائم مصالح أحدهم. نعم أظن أن «مشكلة سلوك الوكيلة» يمكن أن تُحل بسهولة. لقد كان في الأمر رشوة، أليس كذلك؟

– أهذا هو حلّك؟

– حسناً، إن لم يكن من الطبيعي أن تتصرف بتلك الطريقة فلا بد من أنها كانت تقوم بتمثيل دور، وهذا يعني أن شخصاً قد دفع لها مالاً لتفعل ما فعلته.

- وهل تعرفين من هو هذا الشخص؟

- آه، أظن ذلك. أخشى أن المال هو السبب مرة أخرى. وقد لاحظت أن الرجال يميلون دائماً للإعجاب بنفس النمط من النساء.

- لم أعد أفهم شيئاً.

- بلى، بلى، الأمر كله منسجم مترابط. لقد كان هاري معجباً ببيلا، وهي سمراء من النوع الحيوي النشيط. وقد كانت ابنة أخيك كلاريس من نفس النوع، أما الزوجة الصغيرة المسكينة فكانت من نوع مختلف تماماً؛ شقراء الشعر ومن النوع الذي يتمسك بالرجل ويعتمد عليه اعتماداً كلياً... ليست من النوع الذي يفضله هاري أبداً. إذن لا بد أنه تزوجها من أجل مالها.. وقتلها من أجل مالها أيضاً!

- إنك تستخدمين كلمة «قتل»!

- إنه يبدو من هذا النوع... جذاباً للنساء ولا يرده أي وازع. أظنه أراد الاحتفاظ بأموال زوجته والزواج بابنة أخيك. وربما شوهد وهو يتحدث إلى السيدة إيدج، ولكني لا أظن أنه بقي متعلقاً بها.

- هل تعرفين -بالضبط- كيف قتلها؟

نظرت الآنسة ماربل أمامها بعض الوقت بعينين حالمتين زرقاوين ثم قالت: كان توقيت الحادث جيداً للغاية... مع وجود

شهود في عربة الخبز. كان يمكنهم رؤية السيدة العجوز، وكان من شأنهما اعتبار خوف الحصان بسبب العجوز. ولكني أعتقد -شخصياً- أن ذلك كان بفعل طلقة من بندقية ضغط أو ربما مقلاع حجر. نعم، بينما كان الحصان خارجاً من البوابة تماماً. وقد انطلق الحصان طبعاً بأقصى سرعته وسقطت السيدة لاكستون عن ظهره.

سكتت متجهمة ثم تابعت تقول: ربما كان من شأن السقطة أن تقتلها، ولكنه لا يستطيع الاطمئنان لذلك؛ فهو يبدو من ذلك النوع الذي يضع خططه بحرص شديد ولا يترك شيئاً للصدفة. إن باستطاعة السيدة إيدج -في نهاية الأمر- أن تُحضر له عقاراً مناسباً دون معرفة زوجها. وإلاّ فلماذا يهتم هاري بها؟ نعم، أظن أنه كان يحتفظ بدواء قوي يمكن أن يعطيه لها قبل وصولك. والمرأة إذا وقعت عن حصانها وأصيبت بإصابات بليغة وماتت دون أن تسترد وعيها، فمن الطبيعي ألاّ يرتاب الطبيب في الأمر، أليس كذلك؟ سيعزو الوفاة إلى الصدمة أو إلى شيء آخر.

أومأ الدكتور هيدوك برأسه.

سألته الآنسة ماربل: لماذا شككت في الأمر؟

- لم يكن هذا ذكاء من ناحيتي. إنها -فقط- الحقيقة المعروفة جيداً التي تقول إن القاتل يحتال كثيراً بذكائه إلى الحد الذي لا يتخذ معه الاحتياطات المناسبة. كنت أقول بعض كلمات العزاء للزوج المنكوب عندما ألقى بنفسه على الأريكة ليقوم بأداء

دور تمثيلي فسقطت من جيبه إبرة طبية. أخذها عن الأرض بسرعة وبدا خائفاً إلي حدٍ ساورتني معه الشكوك. لم يكن هاري لاكستون مدمناً علىٍ المخدرات، بل كان في صحة تامة، فماذا كان يفعل بالإبرة الطبية؟ وقمت بتشريح الجثة وفي ذهني بعض الاحتمالات المعينة، فوجدت مادة الإستروفانتين... والبقية كانت سهلة. كان لاكستون يحتفظ بالإستروفانتين، وعندما استجوب الشرطة بيلا إيدج انهارت واعترفت بأنها هي التي أعطته هذه المادة. وفي النهاية اعترفت السيدة مورغاترويد بأن هاري لاكستون هو الذي طلب منها القيام بذلك الاستعراض.

– وهل تجاوزت ابنة أخيك هذه المحنة؟

– نعم، كانت قد أعجبت بالرجل، ولكن العلاقة لم تتطور كثيراً.

أخذ الطبيب مخطوطته وقال: لقد حصلتِ على علامة كاملة يا آنسة ماربل... وعلامة كاملة لي على هذا الدواء الذي شفاك. إنك تكادين تبدين كعهدك من جديد.

* * *

المذبح

انعطفت زوجة القس عند زاوية بيتها وهي تحمل ملء ذراعيها من أزهار الأقحوان. وكان الكثير من تراب الحديقة الخصب يلتصق بحذائها القوي الغليظ، كما كانت بعض ذرات التراب ملتصقة بأنفها، ولكنها لم تكن تدرك ذلك.

وجدت شيئاً من الصعوبة في فتح بوابة بيت القس التي أوشكت مفاصلها الصدئة أن تنخلع، وهبت نسمة من الريح على قبعتها البالية مما جعلها في وضع أكثر ميلاً ممّا كانت عليه من قبل. قالت بَنْش: "تباً!"، ثم شقت طريقها من خلال الباب وهي تحمل أزهار الأقحوان واتجهت إلى فناء الكنيسة ثم إلى بابها.

وقد صارت السيدة هارمون (التي سمّاها والداها المتفائلان ديانا) تُدعى بَنتش في سن مبكرة؛ وذلك في إشارة لحدبتها كما تعني تلك الكلمة، وقد اقترن هذا الاسم بها منذ ذلك الحين.

كان هواء تشرين الثاني (نوفمبر) لطيفاً ورطباً، وكانت السحب تندفع في السماء مُظهرةً بُقعاً من زرقة السماء هنا وهناك، أما في الداخل فقد كانت الكنيسة مظلمة وباردة.

قالت بَنتش على نحو معبِّر: برررر! من الأفضل أن أنتهي من هذا بسرعة؛ فلا أريد أن أموت برداً.

وبسرعة اكتسبتها من طول المران، جمعت مستلزمات عملها المختلفة من مزهريات وماء وحاملات أزهار، وفكرت في نفسها قائلة: "ليت عندنا أزهار الليلك! لقد سئمت أزهار الأقحوان النحيلة هذه". ثم رتّبتْ أصابعُها الرشيقة الأزهارَ في الحاملات.

لم يكن في تنسيقها الأزهار أي فن أو إبداع خاص، ذلك أن بَنتش هارمون نفسها لم تكن فنانة ولا مبدعة، ولكنه كان تنسيقاً بسيطاً ومُفرحاً. وبعد ذلك مشت في الممر وهي تحمل المزهريات بحذر وشقت طريقها نحو المذبح. وفي هذه الأثناء أشرقت الشمس.

دخلت أشعة الشمس من خلال النافذة الشرقية ذات الزجاج الملون باللونين الأزرق والأحمر (وهو هبة أحد الأثرياء الفكتوريين ممن كانوا يترددون على الكنيسة). وقد كاد أثر ذلك الإشراق يكون مذهلاً في غناه ودفقه المفاجئ، وقالت بَنتش تخاطب نفسها: "إنها تتلألأ كالجواهر...". وفجأة توقفت وهي تحدق أمامها، فعلى درجات الفسحة أمام المذبح جثَمَ جسمٌ معتم.

وضعت بَنتش الأزهار على الأرض بحذر وصعدت نحوه وانكبت عليه. كان رجلاً متكوراً على نفسه، وجثت بَنتش على ركبتيها بجانبه وقلبته ببطء وحذر، ثم فحصت نبضه بأصابعها. كان النبض ضعيفاً مرتجفاً بحيث يتحدث عن نفسه، حاله في ذلك حال وجهه الشاحب الذي يوشك أن يكون مخضراً. ورأت بَنتش أن الرجل يحتضر دون شك.

كان رجلاً في الخامسة والأربعين من عمره تقريباً ويلبس

بدلة قاتمة بالية. وضعت يده المرتخية التي كانت قد رفعتها ونظرت إلى يده الأخرى، وبدا وكأن تلك اليد كانت مشدودة على شكل قبضة فوق صدره. وعندما نظرت إليها عن كثب رأت أن الأصابع كانت مغلقة على حشوة كبيرة أو منديل كان يمسك به بقوة إلى صدره. وحول قبضته تلك كانت بقع من سائل بني جاف خمنت بَنتش أنه دم جاف.

جلست بَنتش على عقبيها وهي عابسة. حتى تلك اللحظة كانت عينا الرجل مغمضتين، ولكنهما فتحتا فجأة وركزتا على وجه بَنتش. ولم تكونا منبهرتين ولا تائهتين، بل بدتا مليئتين بالحيوية والذكاء. وتحركت شفتاه، فمالت بَنتش عليه لتسمع الكلمات التي يقولها... أو بالأحرى الكلمة؛ إذ لم يقل إلاّ كلمة واحدة: «المذبح».

خُيّل إليها انها لمحت ابتسامة باهتة جداً على شفتيه وهو يتنفس بتلك الكلمة. لم يكن فيها مجال لأي خطأ، فقد كررها ثانية بعد لحظة: «المذبح...»!

ثم أغلق عينيه ثانية وهو يسحب نفساً طويلاً خافتاً. ومرة أخرى تحسست بَنتش نبضه، وكان نبضاً متصلاً، ولكنه بات الآن أضعف وأكثر تقطُعاً.

نهضت بشيء من التصميم وقالت: لا تتحرك أو تحاول أن تتحرك... سأخرج لطلب النجدة.

فُتحت عينا الرجل مرة أخرى، ولكنه بدا الآن وكأنه يركز

انتباهه على الضوء الملون القادم من خلال النافذة الشرقية. ثم تمتم بشيء لم تفهمه بَنتش تماماً، وظنت -مرعوبة- أنه ربما تلفّظ باسم زوجها.

قالت: جوليان؟ هل جئت إلى هنا لتبحث عن جوليان؟

ولكنها لم تسمع إجابة. كان الرجل مستلقياً وعيناه مغمضتين وأنفاسه بطيئة قصيرة. واستدارت بَنتش وغادرت الكنيسة بسرعة، ونظرت إلى ساعتها وأومأت برأسها بشيء من الرضا؛ فالدكتور غريفيث ما زال في عيادته التي لا تبعد عن الكنيسة أكثر من دقيقتين مشياً على الأقدام.

دخلت العيادة دون أن تقرع الباب أو الجرس، وعبرت غرفة الانتظار ثم دخلت غرفة الطبيب وقالت: يجب أن تأتي على الفور؛ في الكنيسة رجل يُحتضَر.

بعد بضع دقائق كان الدكتور غريفيث ينهض بعد أن فحص الرجل بسرعة، ثم قال: هل يمكننا أن ننقله من هنا إلى بيت القس؟ هناك أستطيع العناية به بشكل أفضل... دون أن يعني ذلك فائدة كبيرة له.

- بالطبع؛ سأذهب أمامك وأجهز الأمور. ما رأيك في أن أستدعي هاربر وجونز لمساعدتك في حمله؟

- أشكرك. يمكنني الاتصال هاتفياً لطلب سيارة إسعاف، ولكني أخشى أن لا تصل السيارة إلاّ...

ثم ترك العبارة دون أن ينهيها فسألته: أهو نزيف داخلي؟

أومأ الدكتور غريفيث برأسه بالإيجاب وقال: كيف وصل إلى هنا يا ترى؟

قالت بَنتش وهي تفكر: لا بد أنه كان هنا طوال الليل. إن هاربر يفتح الكنيسة في الصباح عندما يذهب إلى العمل، ولكنه لا يدخلها في العادة.

بعد ذلك بخمس دقائق تقريباً كان الدكتور غريفيث يضع سماعة الهاتف ويعود إلى غرفة الجلوس حيث كان الرجل المصاب ممدداً على بطانيات وُضعت على عجل، وكانت بَنتش تنقل بعض الماء وتنظف ما خلفه فحص الطبيب.

قال الطبيب: "حسناً، هذا كل شيء. لقد أرسلت في طلب سيارة إسعاف وأبلغت الشرطة". ثم وقف عابساً ينظر إلى المريض الذي استلقى وقد أغلق عينيه، وكانت يده اليسرى تنتفض وتتشنج على جانبه في حركة عصبية.

قال غريفيث: لقد أُطلِقَ عليه الرصاص... أُطلق الرصاص عليه من مكان قريب تماماً. وقد كوّر منديله على شكل كرة وأغلق به الجرح حتى يوقف النزيف.

- أكان بوسعه أن يسير مسافة طويلة بعد حدوث ذلك؟

- آه، نعم، هذا ممكن تماماً. أصيب رجل -ذات مرة- إصابة قاتلة وتحامل على نفسه وسار في الشارع وكأن شيئاً لم

يحدث، ثم انهار فجأة بعد خمس دقائق أو عشر. ولذلك فإن الرصاص لم يُطلَق عليه داخل الكنيسة بالضرورة. نعم، ربما أُطلق عليه الرصاص في مكان بعيد إلى حدٍّ ما، وربما كان قد أطلق الرصاص على نفسه ثم أسقط المسدس وسار متعثراً نحو الكنيسة... لا أعرف تماماً لماذا قصد الكنيسة ولم يقصد بيت القس المُلحق بها.

– آه، **أنا أعرف ذلك**؛ فقد قال: «المذبح».

حدّق الطبيب إليها وقال: المذبح؟

قالت بَنتش وهي تلتفت بعد أن سمعت وقع أقدام زوجها في الصالة: ها قد جاء جوليان. جوليان! تعال هنا.

دخل جوليان هارمون الغرفة. كان في طريقة تصرفه الغامضة الموحية بسعة العلم ما يُظهره دائماً أكبر من عمره الحقيقي. قال وهو يحدق بهدوء وحيرة إلى الأجهزة الطبية والجسد الممدد على الأريكة: يا إلهي!

أوضحت بنتش بأسلوبها المختصر المعتاد: كان يُحتضر داخل الكنيسة. لقد أُطلق عليه الرصاص. هل تعرفه يا جوليان؟ أظنه ذكر اسمك.

اقترب الكاهن من الأريكة ونظر إلى الرجل المحتضر وقال: "مسكين!"، ثم هز رأسه نافياً وقال: لا؛ لا أعرفه. بل أكاد أكون واثقاً من أنني لم أره من قبل أبداً.

في تلك اللحظة فُتحت عينا الرجل المحتضر مرة أخرى. نقلهما من الطبيب إلى جوليان هارمون ومنه إلى زوجته، وبقيت العينان هناك، تحدقان إلى وجه بنتش.

تقدم غريفيث وقال بسرعة: لو استطعتَ إخبارنا...

لكن الرجل قال بصوت ضعيف وعيناه مركزتان على بنتش: "أرجوك... **أرجوك**..."، ثم ارتعش ارتعاشة خفيفة ومات.

* * *

لحس الرقيب هيز قلم الرصاص وقلب صفحة من دفتر ملاحظاته وقال: أهذا –إذن– كل ما يمكنك قوله لي يا سيدة هارمون؟

قالت بنتش: هذا كل ما عندي. بالإضافة إلى الأشياء التي كانت موجودة في جيوب معطفه.

كانت على الطاولة عند مرفق الرقيب هيز محفظة وساعة قديمة مُضرَّبة بعض الشيء، عليها حرفا (و س)، وتذكرة عودة إلى لندن... ولا شيء غير ذلك.

سألته بنتش: هل عرفتم من يكون؟

– لقد اتصلت امرأة تدعى السيدة إيكلس وزوجها بمركز الشرطة. يبدو أن الرجل المتوفى أخوها واسمه ساندبورن، وقد كان في حالة صحية وعصبية ضعيفة منذ بعض الوقت، وساءت

حالته في الفترة الأخيرة، وقد خرج أول أمس من البيت ولم يعد، وأخذ معه مسدساً.

قالت بنتش: وجاء إلى هذا المكان فقتل نفسه فيه؟ لماذا؟

– لقد كان يشعر بالاكتئاب...

قاطعته بنتش: لا أقصد هذا. أقصد لماذا هنا؟

ولأنه كان واضحاً أن الرقيب هيز لا يعرف الإجابة على ذلك السؤال فقد ردّ عليها بطريقة ملتوية: لقد جاء إلى هنا في حافلة الساعة الخامسة وعشر دقائق.

قالت بنتش ثانية: نعم. ولكن لماذا؟

– لا أعرف يا سيدة هارمون؛ ليس لديّ تفسير. إذا كان العقل مختلاً...

أكملت بنتش عنه: فيمكنه أن يفعلها في أي مكان... ولكني ما زلت لا أرى ضرورة لأن يركب حافلةً ويأتي إلى مكان ريفي صغير كهذا. إنه لا يعرف أحداً هنا، أليس كذلك؟

قال الرقيب هيز: "لا نعرف على وجه الجزم". ثم سعل بطريقة اعتذارية وقال وهو يقف: ربما رغب السيد إيكلس وزوجته بالقدوم لرؤيتك يا سيدتي... إن كنت لا تمانعين.

– لا أمانع بالطبع، هذا أمر طبيعي جداً. أتمنى –فقط– لو كان عندي ما أبلغهما به.

– سأذهب الآن.

قالت بَنتش وهي تسير معه إلى الباب الأمامي: أحمد الله كثيراً على أنها لم تكن جريمة قتل.

جاءت سيارة وتوقفت عند بوابة بيت القس. قال الرقيب هيز وهو ينظر إليها: يبدو لي أن السيد إيكلس وزوجته قد وصلا للحديث معك يا سيدتي.

استعدت بنتش لتحمّل ما شعرت أنه قد يكون محنة عصيبة بعضِ الشيء وفكرت في نفسها قائلة: مهما يكن الأمر، أستطيع دائماً استدعاء جوليان لمساعدتي.

وقد كان السيد إيكلس وزوجته كما توقعتهما بنتش تماماً، الأمر الذي جعلها تحس بشيء من الدهشة عندما حيّتهما. ورغم أنها لم تستطع أن تُظهر هذا الإحساس إلاّ أنها كانت تعيه تماماً. كان السيد إيكلس رجلاً ممتلئ الجسم متورد الوجه من شأن سلوكه الطبيعي أن يكون مرحاً وفكهاً، وكانت السيدة إيكلس ذات شكل يوحي بالبهرجة على نحو غامض وفم صغير مزموم إلى الأعلى بشكل يوحي باللؤم، وكان صوتها رفيعاً أشبه بالصفير.

قالت: كانت صدمة عنيفة لنا كما تعلمين يا سيدة هارمون.

– آه، أعرف؛ إنها صدمة بالتأكيد. اجلسا من فضلكما. هل أقدم لكما... لعل الوقت ما زال مبكراً بعض الشيء على تناول الشاي.

لوح السيد إيكلس بيد سمينة وقال: لا، لا؛ لا نريد شيئاً. هذا لطف بالغ منك. أردنا فقط أن... أن نعرف ما قاله المسكين ويليام، وما إلى ذلك.

قالت السيدة إيكلس: لقد كان في الخارج لفترة طويلة، وأظن أنه عانى من بعض التجارب بالغة الصعوبة. كان شديد الهدوء والكآبة منذ أن عاد من الخارج، وقد قال إن العالم غير مناسب للعيش فيه، وليس عنده ما يتطلع أو يصبو إليه. مسكين بيل، كان دائماً مرير المزاج.

نظرت بنتش إليهما معاً لبضع ثوان دون أن تتكلم.

وأكملت السيدة إيكلس: لقد سرق مسدس زوجي دون أن ندري، ويبدو أنه جاء إلى هنا بعد ذلك في الحافلة. أظن أن ذلك كان إحساساً جميلاً من طرفه؛ فهو لم يرغب في فعل ذلك في بيتنا.

قال السيد إيكلس وهو يتنهد: مسكين، مسكين! لا ينفع أن نحكم عليه الآن.

ساد صمتٌ قصير مرة أخرى، ثم قال السيد إيكلس: هل ترك رسالة؟ أية كلمات أخيرة أو شيئاً من ذلك؟

كانت عيناه اللامعتان تراقبان بنتش عن كثب، ومالت السيدة إيكلس إلى الأمام هي الأخرى وكأنها متلهفة لسماع الرد.

قالت بنتش بهدوء: لا؛ فقد دخل الكنيسة عندما كان يحتضر

طلباً للملاذ في المذبح.

قالت السيدة إيكلس بصوت مرتبك: المذبح؟ لا أظن أنني...

قاطعها السيد إيكلس قائلاً بنفاد صبر: إنه المكان المقدس يا عزيزتي. هذا هو ما تعنيه زوجة القس؛ فالانتحار خطيئة كما تعلمين، وأظنه أراد طلب المغفرة.

قالت بنتش: لقد حاول أن يقول شيئاً قبل وفاته. بدأ يقول "أرجوك"، ولكن هذا كل ما استطاع أن يقوله.

وضعت السيدة إيكلس منديلها على عينيها ومسحت دموعها ثم تنشقت وقالت: يا إلهي! أمر مزعج جداً، أليس كذلك؟

قال زوجها: اهدئي يا بام، اهدئي، تمالكي نفسك. هذه الأشياء لا يمكن تفاديها. مسكين ويليام! ولكنه يرقد في طمأنينة الآن. نشكرك كثيراً يا سيدة هارمون. أرجو ألاّ نكون قد شغلناك، فنحن نعرف أن زوجة القس كثيرة المشاغل.

صافحاها، ثم التفت إيكلس إلى الوراء فجأة ليقول: آه، نعم، أمر آخر فقط. أظن أن معطفه عندك هنا، أليس كذلك؟

قطبت بنتش جبينها وقالت: معطفه؟

قالت السيدة إيكلس: نريد أن نأخذ جميع أغراضه... للذكرى.

- كان يحمل في جيوبه ساعة ومحفظة وتذكرة قطار، وقد

أعطيتها للرقيب هيز.

قال السيد إيكلس: هذا حسن إذن؛ أظن أنه سيسلمها لنا. لا بد أن أوراقه الخاصة كانت في المحفظة.

- كان في المحفظة ورقة نقدية من فئة الجنيه فقط، ولا شيء غيرها.

- هل كان فيها رسائل؟ أو أشياء مثلها؟

هزت بَنتش رأسها بالنفي.

- حسناً، شكراً لك مرة أخرى يا سيدة هارمون. بالنسبة للمعطف الذي كان يلبسه... ربما أخذه الرقيب أيضاً، أليس كذلك؟

قطبت بنتش جبينها في محاولة للتذكر ثم قالت: لا، لا أظن... دعني أتذكر. لقد قمتُ أنا والطبيب بخلع معطفه لفحص الجرح.

نظرت حول الغرفة نظرات مبهمة ثم قالت: لا بد أنني أخذته معي إلى الطابق العلوي مع المناشف وحوض الماء.

- ترى هل تمانعين يا سيدة هارمون...؟ إننا نود لو نأخذ معطفه هذا، فهو آخر شيء لبسه في حياته. إن زوجتي حساسة تجاه هذا الأمر.

- بالطبع. هل تريدني أن أنظفه لكما؟ أخشى أنه... أنه

مليء بالبقع.

- آه، كلا، كلا، هذا لا يهم.

عبست بنتش وقالت: ترى أين... لحظة من فضلكما.

صعدت إلى الطابق العلوي ومضت بضع دقائق قبل أن تعود قائلة وهي تلهث: آسفة جداً، لا بد أن خادمتي قد وضعته جانباً مع الملابس التي كانت سترسل للتنظيف. لقد بحثتُ طويلاً قبل أن أجده. ها هو، سألفّه لك في ورق بني.

لفّته بالورق دون أن تلتفت لاعتراضاتهما، ثم ودّعاها بإسهاب مرة أخرى وغادرا.

عادت بنتش إلى الصالة ببطء ودخلت غرفة المكتب، فرفع زوجها بصره وقال مُشجعاً: نعم يا عزيزتي؟

- جوليان، ما هي العلاقة بين كلمتي **الملاذ والمذبح** بالضبط.

وضع جوليان هارمون الورقة التي كان يكتب فيها جانباً وقال: المذبح في المعابد الإغريقية والرومانية هو المكان الذي يقف فيه تمثال الإله، والكلمة اللاتينية المقابلة للمذبح (وهي آرا) كانت تعني أيضاً الحماية أو الملاذ. وفي عام ثلاثمئة وتسعة وتسعين بعد الميلاد تم الاعتراف بشكل نهائي ومحدد بحق اللجوء إلى المذبح في الكنائس كملاذ للمطاردين، وأول ذكر لهذا الحق في اللجوء إلى المذبح في إنكلترا موجود في كتاب

القوانين الذي أصدره إيثلبرت عام ستمئة بعد الميلاد...

واصل خطابه لبعض الوقت، ولكن أزعجته -كما هي العادة- الطريقة التي كانت زوجته تستقبل بها شروحاته الموسوعية.

قالت: "يا حبيبي، إنك رائع فعلاً". ثم انحنت وقبّلته، فأحس كأنه كلب تلقى تهنئة على أدائه حركة بارعة.

قالت بنتش: كان إيكلس وزوجته موجودَيْن هنا.

قطب جبينه وقال: إيكلس؟ إنني لا أتذكر...

– أنت لا تعرفهما. إنها أخت الرجل الذي وجدناه بالكنيسة وزوجها.

– يا عزيزتي، كان يجب أن تناديني.

قالت: "لم تكن لذلك أية حاجة؛ فلم يكونا بحاجة إلى مواساة". ثم قالت عابسة: أتساءل إن كان بوسعك أن تتدبر أمر طعامك غداً إن تركتُ لك الصينية في الفرن؟ أظنني سأذهب إلى لندن لحضور التنزيلات.

نظر زوجها إليها مشدوهاً: التنزيلات؟

ضحكت بنتش وقالت: توجد تنزيلات على البياضات في محل باروز وبورتمان. الشراشف وأغطية الطاولات والمناشف ومماسح الزجاج... لا أعرف ماذا نفعل بهذه المماسح، فهي تهترئ بسرعة.

ثم أضافت متأملة: بالإضافة إلى أن عليّ الذهاب لرؤية العمة جين.

* * *

كانت تلك العجوز اللطيفة، الآنسة جين ماربل، تستمتع بمباهج المدينة لفترة أسبوعين، وقد احتلت شقة ابن أخيها بكل ارتياح.

تمتمت قائلة: كان هذا تصرفاً في غاية اللطف من ريموند. لقد ذهب هو وجوان إلى أميركا لفترة أسبوعين، وأصرّا على أن آتي إلى هنا لأمتع نفسي. والآن يا عزيزتي بَنتش، أخبريني بما يقلقك.

كانت بَنتش امرأة أثيرة لدى الآنسة ماربل، وقد نظرت السيدة العجوز إليها بكثير من المحبة بينما كانت تدفع قبعتها المفضلة إلى مؤخرة رأسها وتنطلق في سرد حكايتها.

كان سرد بنتش القصة مختصراً وواضحاً. أومأت الآنسة ماربل برأسها بعد أن انتهت بَنتش من روايتها وقالت: فهمت. نعم، لقد فهمت.

– هذا هو السبب الذي جعلني أشعر بوجوب رؤيتك. كما تعرفين فأنا لست على هذا القدر من الذكاء...

– ولكنك **ذكية** يا عزيزتي.

– لا، لست ذكية... لست ذكية مثل جوليان.

- إن لجوليان عقلاً راجحاً جداً بالطبع.

- هذا صحيح؛ إن لجوليان عقلاً، ولكن لي -من ناحية أخرى- **نظراً سليماً** للأمور.

- لديك الكثير من الفطرة السليمة يا بنتش، كما أنك ذكية جداً.

- أنا لا أعرف حقاً ما يتوجب علي عمله، ولا أستطيع أن أسأل جوليان لأنه... أعني أن جوليان شديد الاستقامة.

بدا أن هذه العبارة مفهومة تماماً من قبل الآنسة ماربل التي قالت: "أعرف ما تعنينه يا عزيزتي. أما نحن معشر النساء... أعني أن الأمر مختلف عندنا". ثم أكملت: لقد أخبرتني بما حدث يا بنتش، ولكني أريد أن أعرف أولاً رأيك أنت بالضبط.

- الأمر كله غير طبيعي. الرجل الذي كان يحتضر هناك في الكنيسة كان يعرف كل شيء عن المذبح، وقد ردد الكلمة بنفس الطريقة التي كان من شأن جوليان أن يقولها. أقصد أنه رجل مطّلع ومثقف. ولو كان قد أطلق النار على نفسه لما كان من شأنه أن يسحب نفسه بعد ذلك إلى كنيسة ليقول: "المذبح"! إن المذبح -في هذا الإطار- يعني أن يكون المرء مطارداً وعندما يدخل الكنيسة يصبح آمناً، وعندها لا يستطيع ملاحقوه أن يمسّوه بسوء. لقد مرّ زمن لم يكن فيه بوسع رجال القانون أنفسهم ملاحقة المطلوبين هناك.

نظرت إلى الآنسة ماربل متسائلة، وأومأت الأخيرة برأسها

لتعود بنتش فتقول: هؤلاء الشخصان، إيكلس وزوجته، كانا مختلفين تماماً؛ كانا جاهلين وجلفين. كما أن هناك شيئاً آخر. تلك الساعة... ساعة الرجل الميت. كان عليها من الخلف الحرفان «و. س»، وقد فتحتها فوجدت مكتوباً عليها من الداخل وبحروف صغيرة جداً عبارة «إلى والتر من أبيه»... والتر، ولكن إيكلس وزوجته ظلا يتحدثان عنه باسم ويليام أو بيل.

كانت الآنسة ماربل على وشك الكلام، لكن بنتش أسرعت في إكمال حديثها: آه، أعرف أن الناس لا يدعون دائماً الشخص باسمه الأصلي. أقصد أنني أفهم أن يسمى الشخص باسم ويليام وينادى باسم آخر من قبيل التحبب أو غير ذلك، ولكن ليس من شأن أخت امرئ أن تناديه باسم ويليام أو بيل إن كان اسمه والتر.

- أتقصدين أنها لم تكن أخته؟

- أنا واثقة تماماً من أنها ليست أخته. كانا خائفين... كلاهما، وقد قدما لأخذ حاجياته وليعرفا إن كان قد قال شيئاً قبل أن يموت. وعندما قلت إنه لم يقل شيئاً رأيت أثر ذلك على وجهيهما... رأيت ارتياحهما. أنا -شخصياً- أظن أن إيكلس هو الذي قتله.

- جريمة قتل؟

- نعم، جريمة قتل. ولهذا جئتُ إليك يا عزيزتي.

ربما لم يكن من شأن مستمع جاهل أن يرى معنى لهذا التبرير الذي ساقته بنتش لزيارتها، ولكن الآنسة ماربل كانت

مشهورة في بعض الدوائر بتعاملها مع جرائم القتل.

قالت بنتش: قال لي قبل أن يموت: "أرجوك". لقد أراد مني أن أفعل شيئاً له، والأمر الفظيع أنني لا أعرف ما هو هذا الشيء.

فكرت الآنسة ماربل لحظات ثم أشارت إلى النقطة التي خطرت لبنتش من قبل. سألتْها: ولكن لماذا كان موجوداً هناك أساساً؟

- تقصدين أن باستطاعته، لو أراد الملاذ، دخول أية كنيسة في أي مكان، ولا حاجة لركوب حافلة لا تسافر إلاّ أربع مرات في اليوم والقدوم إلى منطقة معزولة كمنطقتنا من أجل ذلك.

قالت الآنسة ماربل وهي تفكر: لا بد أنه ذهب هناك لغرض معين... لا بد أنه ذهب لرؤية شخص ما. إن قرية تشيبنغ كليغورن ليست كبيرة يا بنتش، ولا بد أن لديك فكرة عن الشخص الذي قصده هذا الرجل؟

استعرضت بنتش سكان قريتها في نفسها قبل أن تهز رأسها مرتابة وتقول: يمكن أن يكون أي شخص.

- ألم يذكر أي اسم أبداً؟

- قال "جوليان"، أو هكذا ظننته قال. ربما كان يقول "جوليا"، وحسب علمي لا توجد أية امرأة باسم جوليا في تشيبنغ كليغورن.

أغمضت عينيها وهي تستعيد المشهد... الرجل الممدد على عتبات المذبح، والضوء يأتي من خلال النافذة بلون أحمر وأزرق كالجواهر.

قالت الآنسة ماربل متفكرة: الجواهر.

- سآتي الآن إلى أهم شيء على الإطلاق، إلى السبب الذي جعلني آتي إليك هنا اليوم. كان إيكلس وزوجته متلهفين كثيراً للحصول على معطفه. وقد خلعنا عنه معطفه عندما كان الطبيب يفحصه، وكان معطفاً قديماً بالياً، ولم يكن لإصرارهما على أخذه أي سبب مقنع. لقد تظاهرا بأنهما يريدانه للذكرى، ولكن هذا هراء. على أية حال ذهبتُ لأبحث عنه، وعندما كنت أصعد الدرج تذكرت كيف أن الرجل الميت أشار بيده إلى جيبه وكأنه أراد أن يتحسس معطفه، ولذلك فعندما وجدتُ المعطف تفحصته بكل عناية، ورأيت أن البطانة في مكان معين قد خيطت مرة أخرى بخيط مختلف. وحين فتحتها وجدت قصاصة صغيرة من الورق في الداخل، فأخذتها ثم خيّطتُ البطانة من جديد بخيط شبيه. كنت حذرة في ذلك، ولا أظن أن إيكلس وزوجته عرفا بما فعلته. لا أظن ذلك... ولكني لا أستطيع الجزم. ثم أخذت المعطف إليهما واختلقت عذراً لتأخري.

- وأين قصاصة الورق؟

فتحت بنتش حقيبتها وقالت: لم أُرها لجوليان لأنه كان سيطلب مني أن أعطيها لإيكلس، وقد رأيت من الأفضل أن

أحضرها إليك بدلاً من ذلك.

قالت الآنسة ماربل وهي تنظر إليها: تذكرة إيداع الأمانات في محطة بادينغتن للقطارات.

– كانت في جيبه تذكرة عودة إلى محطة بادنغتون.

تبادلت المرأتان النظرات، ثم قالت الآنسة ماربل بسرعة: هذا يستدعي منّا العمل. ولكن أرى أن من الضروري أن نحذر. هل لاحظتِ –يا بنتش– إن كان أحد يتبعك عندما جئت إلى لندن اليوم؟

صاحت بنتش: يتبعني! أتظنين...

– أظن ذلك ممكناً، وعندما يكون أي شيء ممكناً فيجب أن نأخذ احتياطاتنا.

نهضت بحركة رشيقة وقالت: لقد جئتِ إلى هنا –يا عزيزتي– لحضور التنزيلات من الناحية الظاهرية، ولذلك أظن أن من الصواب أن نذهب إلى التنزيلات. ولكن قبل أن ننطلق يجب أن نأخذ بعض التدابير. لا أظنني سأحتاج معطف الصوف القديم المرقط ذا الياقة العالية في الوقت الحالي.

بعد ذلك بساعة ونصف تقريباً كانت السيدتان تلبسان ملابس شبه بالية ومظهرهما يوحي بالتعب، وهما تحملان أكياساً من الشراشف التي حصلتا عليها بشق الأنفس، وما لبثا أن جلستا في مطعم صغير معزول يدعى أبل باف لكي تستعيدا قواهما بتناول

وجبة خفيفة من شرائح اللحم وفطائر الكلى، وتبع ذلك كعكة التفاح والكسترد.

قالت الآنسة ماربل لاهثة: إنها مناشف من النوعية الجيدة التي كانت سائدة قبل الحرب، وقد نُقش عليها الحرف «ج» أيضاً، ولحسن الحظ فإن اسم جوان (زوجة ريموند) يبدأ بهذا الحرف. سأحتفظ بهذه المناشف لحين حاجتي إليها، وسوف تنفعها إذا متّ قبل الأوان.

قالت بنتش: كنت بحاجة لمماسح زجاج بالفعل، وقد كانت رخيصة جداً، رغم أنها ليست برخص تلك المماسح التي نحجت المرأة ذات الشعر البني في خطفها من يدي.

دخلت المطعم في تلك اللحظة فتاة أنيقة تضع كثيراً من الصبغة على وجهها، وبعد أن نظرت حولها نظرات غامضة أسرعت إلى طاولة السيدتين ووضعت مغلفاً أمام الآنسة ماربل وهي تقول بسرعة: هاك يا سيدتي.

قالت الآنسة ماربل: آه، أشكرك يا غلاديس. أشكرك كثيراً، هذا لطف منك.

– يُسعدني دوماً أن أخدمك. إن إيرني يقول لي دائماً: "كل خصلة جيدة لديك إنما تعلمتها من تلك الآنسة ماربل التي كنت تعملين عندها". وتأكدي أنني أسر كثيراً بتقديم أية خدمة لك يا سيدتي.

قالت الآنسة ماربل بعد أن غادرت غلاديس المطعم: يا لها من فتاة عزيزة! دائماً خدومة ولطيفة.

نظرت داخل المغلف ثم أعطته لبنتش وقالت: والآن، كوني في غاية الحرص يا عزيزتي. وبالمناسبة، أما زال ذلك المفتش الشاب اللطيف الذي أذكره موجوداً في ميلشستر؟

– لا أعرف، أظن ذلك.

– حسناً، إن لم يكن موجوداً يمكنني الاتصال برئيس الشرطة، فمن شأنه أن يتذكرني كما أظن.

قالت بنتش وهي تنهض: من شأنه أن يتذكرك بالطبع. لا أحد ينساك؛ فأنت امرأة فريدة.

* * *

عندما وصلت بَنتش إلى بادنغتون ذهبت إلى مكتب الأمتعة وقدمت تذكرة الأمانات، وبعد لحظات قُدمت لها حقيبة قديمة بالية بعض الشيء فحملتها وانطلقت نحو الرصيف.

مضت رحلة العودة إلى القرية خالية من الأحداث، وعندما اقترب القطار من تشيبنغ كليغورن نهضت بَنتش عن مقعدها وحملت الحقيبة القديمة. وكانت قد غادرت مقصورتها لتوها عندما اندفع رجل بسرعة فائقة على الرصيف وانتزع الحقيبة فجأة منها وانطلق هارباً بها.

صاحت بَنتش: توقف! أوقفوه، أوقفوه. لقد أخذ حقيبتي.

أما مفتش التذاكر (الذي كان في هذه المحطة الريفية رجلاً بطيء التجاوب) فما أن بدأ يقول: "قف، لا يمكنك أن تفعل هذا..." حتى أتته ضربة قوية على صدره دفعته جانباً. وخرج الرجل من المحطة مسرعاً وبيده الحقيبة، ثم ذهب إلى سيارة كانت في انتظاره، فألقى الحقيبة داخلها، وكان على وشك دخول السيارة عندما أمسكت به يدٌ من كتفه وأتاه صوت الشرطي أبل قائلاً: والآن، ما كل هذا؟

وصلت بنتش من المحطة وهي تلهث قائلة: لقد سرق حقيبتي، وكنتُ قد نزلتُ لتوي من القطار وأنا أحملها.

قال الرجل: هراء! لا أعرف ما تعنيه هذه السيدة. إنها حقيبتي، وقد خرجت من القطار وهي معي.

ثم نظر إلى بنتش نظرة بليدة محايدة. ولم يكن من شأن أحد أن يخمِّن أن الشرطي أبل قد سبق له أن قضى مع السيدة هارمون ساعات طوال في أوقات فراغه يناقش معها فوائد السماد ومسحوق العظام لزراعة الورود.

قال الشرطي: أتقولين إن هذه حقيبتك يا سيدتي؟

قالت بنتش: نعم، دون شك.

– وأنت يا سيدي؟

- أقول إنها حقيبتي.

كان الرجل طويلاً أسمر أنيق الملبس، يركِّز على مخارج ألفاظه ويتصرف بكبرياء. ثم جاء من داخل السيارة صوت امرأة تقول: إنها حقيبتك -بالطبع- يا إدوين. لا أعرف ماذا تعني هذه المرأة.

قال الشرطي: علينا أن نستوضح هذه المسألة. إن كانت هذه حقيبتك يا مدام، فماذا يوجد بداخلها؟

قالت بنتش: ملابس... معطف طويل مرقط ياقته عالية، وكنزتان من الصوف، وزوج من الأحذية.

قال الشرطي: "حسناً، هذا واضح بما فيه الكفاية". ثم التفت إلى الآخر، فقال الرجل الأسمر بعنجهية: إنني أبيع ملابس للتمثيل المسرحي، وهذه الحقيبة تحتوي على ملابس مسرحية أحضرتها معي إلى هنا لمسرحية تقدمها فرقة للهواة.

قال الشرطي: حسناً يا سيدي. هل لنا أن ننظر إلى ما بداخلها؟ يمكننا أن نذهب إلى مركز الشرطة، وإن كنت في عجلة من أمرك فسنأخذ الحقيبة إلى المحطة ثم نفتحها هناك.

قال الرجل: هذا يناسبني. واسمي -بالمناسبة- هو موس، إدوين موس.

عاد الشرطي إلى محطة القطارات وهو يحمل الحقيبة بيده وقال لمفتش التذاكر: نريد فقط أن نُدخل هذه إلى مكتب الطرود

يا جورج.

وضع الشرطي الحقيبة على الطاولة في مكتب الطرود وفتح أزرارها، ولم تكن الحقيبة مقفلة. كانت بنتش والسيد إدوين موس يقفان على جانبيه وهما ينظران إلى بعضهما بحقد.

قال الشرطي أبل وهو يفتح الحقيبة: آه!

كان بداخل الحقيبة معطف طويل من الصوف بياقة عالية من الفراء، كما كان بها كنزتان من الصوف وزوج من الأحذية الريفية.

قال الشرطي وهو يلتفت إلى بنتش: إنها كما قلتِ بالضبط.

ما كان لأحد أن يزعم أن السيد إدوين موس لا يتقن فن الاعتذار؛ فقد كان فزعه وندمه هائلين، إذ قال: إنني آسف فعلاً... آسف جداً. أرجو أن تصدقيني -يا سيدتي العزيزة- عندما أعرب لك عن بالغ أسفي. تصرف لا يُغتفر... لا يُغتفر أبداً.

نظر إلى ساعته وقال: يجب أن أذهب الآن بسرعة، فربما ذهبت حقيبتي مع القطار.

رفع قبعته بالتحية مرة أخرى وقال يخاطب بَنتش برقة: أرجو أن تسامحيني.

ثم اندفع مسرعاً خارج مكتب الطرود، فقالت بنتش وهي تهمس في أذن الشرطي: هل ستتركه يفلت؟

غمزها الشرطي بعينه وقال: لن يبتعد كثيراً يا سيدتي. أعني أنه لن يذهب بعيداً دون مراقبة.

أطلقت بنتش آهة ارتياح، وقال الشرطي: لقد كلمتني تلك السيدة العجوز بالهاتف. السيدة التي كانت تعيش هنا قبل بضع سنوات. إنها ذكية، أليس كذلك؟ ولكن هذا اليوم شهد كثيراً من التمثيل. لن أتعجب إذا جاءك المفتش أو الرقيب صباح غد بخصوص هذا الأمر.

* * *

كان المفتش كرادوك هو الذي جاء إليها، وهو الذي كانت الآنسة ماربل تتذكره. حياها مبتسماً كصديق قديم، ثم قال مبتهجاً: جريمة قتل في تشيبنغ كليغورن ثانية. لا تنقصكم الإثارة هنا يا سيدة هارمون، أليس كذلك؟

– كنت أفضّل لو لم يكن لدينا منها إلاّ القليل. هل جئت لتوجه إليّ أسئلةً أم أنك ستخبرني بأشياء من باب التغيير؟

– سأخبرك بعض الأشياء أولاً. في البداية سأخبرك بأننا نراقب السيد إيكلس وزوجته منذ فترة؛ فلدينا أسباب تدفعنا للاعتقاد بأنهما متورطان بكثير من حوادث السطو في هذه المنطقة. ويوجد أمر آخر، فبالرغم من وجود أخ للسيدة إيكلس يدعى ساندبورن عاد مؤخراً من الخارج، إلاّ أن الرجل الذي وجدتِه يحتضر في الكنيسة بالأمس لم يكن ساندبورن بالتأكيد.

– لقد عرفتُ ذلك، فقد كان اسمه والتر وليس ويليام.

أومأ المفتش برأسه وقال: كان اسمه والتر سينت جون، وقد فر من سجن تشارينغتن قبل ثمان وأربعين ساعة.

قالت بنتش بصوت منخفض تحدث نفسها: بالطبع! كان الشرطة يتعقبونه، ولذا لجأ إلى المذبح.

ثم سألت المفتش بصوت مرتفع: ما الذي فعله؟

– للإجابة على ذلك سأضطر للعودة إلى الوراء بعيداً. إنها حكاية معقدة، فقبل عدة سنوات عاشت راقصة تعمل في المسارح المنوعة. لا أظن أنك سمعت بها من قبل، ولكنها تخصصت بفقرة من رقص ألف ليلة وليلة، وكانت فقرتها تدعى: «علاء الدين في كهف المجوهرات». وكانت تضع بعض الأحجار الكريمة الزائفة لا أكثر. أظن أنها لم تكن راقصة ماهرة، ولكنها كانت جذابة. على أية حال، وقع شخص من أسرة مالكة في آسيا في حبها، ومن بين الأشياء التي أهداها لها كان عقد رائع من الزمرد.

همست بنتش بانفعال: مجوهرات المهراجا التاريخية؟

سعل المفتش كرادوك وهو يقول: لنقل إنه كان نسخة حديثة عن تلك المجوهرات يا سيدة هارمون. ولكن لم تدم العلاقة بينهما فترة طويلة، حيث انقطعت بعد أن تحول الرجل إلى حب نجمة سينمائية أخرى لم تكن مطالبها على نفس ذلك القدر من التواضع. وقد احتفظت زبيدة (وهو الاسم الفني لراقصتنا) بالعقد، ولكنه سُرق منها أخيراً... اختفى من غرفة تغيير ملابسها في المسرح! وقد بقي الشرطة يشتبهون في أن الراقصة نفسها هي

التي خططت لإخفائه. فمثل هذه الأشياء معروفة كمناورة تهدف للدعاية أو لأغراض أكثر سوءاً من ذلك أحياناً.

وبعد توقف قصير مضى المفتش قائلاً: ولم يتم العثور على العقد أبداً، ولكن أثناء سير التحقيقات بدأ هذا الرجل يسترعي انتباه الشرطة (وأعني والتر سينت جون). كان رجلاً مثقفاً من أسرة كريمة، ولكن ضاقت به سبل العيش بحيث أصبح عاملاً في صياغة المجوهرات لدى شركة مغمورة يُشتبه في أنها كانت تعمل كستار لأعمال السطو على المجوهرات، وكان لدينا دليل على أن ذلك العقد قد مرّ من بين يديه. ولكنه اعتُقل أخيراً في مسألة تخص سرقة مجوهرات أخرى، وقُدّم إلى المحاكمة ودين وحكم عليه بالسجن. وكان قد أوشك على إنهاء مدة محكوميته عندما هرب، ولذلك كان هروبه مفاجأة إلى حد ما.

– ولكن لماذا جاء إلى هنا؟

– نحن في أشد الرغبة لمعرفة ذلك يا سيدة هارمون. يبدو من تقصينا لآثاره أنه ذهب أولاً إلى لندن، ولم يَزُرْ أياً من معارفه القدامى، ولكنه زار امرأة مسنة تدعى السيدة جاكوب كانت تعمل فيما مضى في الأزياء المسرحية. وهي لم تقبل قول أي كلمة عن سبب مجيئه إليها، ولكن حسب كلام الآخرين الذين يسكنون معها في المنزل فقد غادر المنزل وهو يحمل حقيبة.

– فهمت... وقد تركها في حجرة إيداع الحقائب في محطة بادنغتون ثم جاء إلى هنا.

– في غضون ذلك كان إيكلس والرجل الذي يسمي نفسه إدوين موس يقتفيان أثره، فقد أرادا تلك الحقيبة، وشاهداه وهو يركب الحافلة، ولا بد أنهما انطلقا في سيارة أمامه وانتظراه عندما غادر الحافلة.

– وهناك قُتل؟

– نعم. أُطلق عليه الرصاص، وكان ذلك من مسدس إيكلس، ولكنني أظن أن موس هو الذي أطلق النار. والآن يا سيدة هارمون، ما نريد معرفته هو مكان الحقيبة التي أودعها والتر سينت جون فعلاً في محطة بادنغتون.

ابتسمت بنتش وقالت: أظن أن العمة جين قد أخذتها الآن... أقصد الآنسة ماربل؛ فقد كانت تلك خطتها. أرسلت خادمة كانت تعمل لديها فيما مضى ومعها حقيبة مليئة بأشيائها الخاصة فأودعتها في غرفة الإيداع في محطة بادنغتون، ثم تبادلنا التذاكر؛ فأخذت أنا حقيبتها وأحضرتها معي في القطار. ويبدو أنها توقعت قيام محاولة لانتزاعها مني.

ابتسم المفتش كرادوك بدوره وقال: قالت لي هذا عندما اتصلت بي بالهاتف. سأذهب إلى لندن لرؤيتها. هل تريدين الذهاب معي يا سيدة هارمون؟

قالت بنتش وهي تفكر: حـ... حسناً، هذا أمر جميل. كان ضرسي يؤلمني الليلة الماضية، ولذلك لا بد من الذهاب إلى لندن لمراجعة طبيب الأسنان، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

* * *

قلّبت الآنسة ماربل بصرها بين المفتش كرادوك ووجه بنتش هارمون المتلهف، وكانت الحقيبة على الطاولة.

قالت السيدة العجوز: "لم أفتحها بالطبع؛ فلم أكن لأحلم بالقيام بمثل هذا الأمر حتى يصل شخص مسؤول". ثم أضافت بابتسامة فكتورية خجولة لا تخلو من المكر: وإلى جانب ذلك فهي مقفلة بالمفتاح.

سألها المفتش: هل تحزرين ما بداخلها يا آنسة ماربل؟

قالت الآنسة ماربل: يخيّل إلي أنها تحتوي على أزياء زبيدة المسرحية. أتريد إزميلاً يا حضرة المفتش؟

أدّى الإزميل غرضه في الحال، وعندما فُتحت الحقيبة شهقت السيدتان قليلاً. كان ضوء الشمس الذي يأتي من خلال النافذة يضيء ما بدا وكأنه كنز لا ينفد من المجوهرات البراقة، حمراء وزرقاء وخضراء وبرتقالية.

قالت الآنسة ماربل: كهف علاء الدين. إنها المجوهرات اللامعة التي كانت الفتاة تلبسها للرقص.

قال كرادوك: آه، ولكن ما هي تلك القيمة الكبرى لها بحيث يُقتل رجل في سبيل الحصول عليها؟

قالت الآنسة ماربل متأملة: أظنها كانت فتاة ذكية. لقد ماتت، أليس كذلك يا حضرة المفتش؟

- نعم؛ ماتت قبل ثلاث سنين.

- وكانت تملك عقد الزمرد الثمين ذاك. لقد انتزعت الحجارة الكريمة من أماكنها في العقد ووضعتها هنا وهناك على ملابس الرقص التي ترتديها حيث يظن الجميع أنها مجرد مجوهرات زائفة، ثم عملت نسخة مزيفة عن العقد الأصلي، وهي النسخة التي سُرقت بالطبع. لا عجب أن العقد لم يظهر في السوق، فقد اكتشف السارق -في الحال- أن الحجارة كانت زائفة.

قالت بنتش وهي تسحب بعض الأحجار اللامعة جانباً: ها هنا مغلف.

أخذه المفتش كرادوك منها وأخرج منه ورقتين رسميتين، ثم قرأ بصوت مرتفع: "عقد زواج بين والتر إدموند سينت جون وماري موس". هذا هو اسم زبيدة الحقيقي.

قالت الآنسة ماربل: كانا متزوجين إذن... فهمت.

سألته بنتش: وما هي الورقة الأخرى؟

- شهادة ميلاد ابنة، تدعى جويل.

صاحت بَنتش: جويل؟ بالطبع. جويل! جيل! لقد فهمت. فهمت الآن لماذا جاء إلى تشيبنغ كليغورن. هذا ما كان يحاول

قوله لي... جويل. عائلة ماندي التي تسكن في قريتنا ترعى طفلة صغيرة لشخص ما، وهم يحبون الطفلة كثيراً ويعاملونها وكأنها حفيدتهم. نعم، أتذكر الآن، كان اسمها جويل، وهم ينادونها جيل. وقد أصيبت السيدة ماندي بسكتة دماغية قبل حوالي أسبوع ومرض الرجل العجوز بذات الرئة، وكان الاثنان سيذهبان إلى مأوى العجزة. وكنتُ أحاول -جاهدة- أن أجد منزلاً جيداً لجيل يؤويها؛ فلم أُرد لها أن تؤخَذ إلى دار للقاصرات. وأظن أن والدها سمع عن ذلك وهو في السجن فتمكن من الهروب وأخذ هذه الحقيبة من المرأة التي تركها هو أو زوجته عندها. ولئن كانت المجوهرات تخص والدة الفتاة فعلاً، فإنني أظن أن باستطاعتها استخدامها الآن.

– أعتقد هذا يا سيدة هارمون. إذا كانت المجوهرات هنا.

قالت الآنسة ماربل مبتهجة: ستكون هنا بالتأكيد.

* * *

قال جوليان هارمون وهو يحيي زوجته بكثير من المحبة والارتياح: أحمد الله أنك عدت إلى البيت يا عزيزتي. إن السيدة بيرت تبذل جهدها دائماً عندما تكونين في الخارج، ولكنها قدّمت لي فطائر سمك غريبة جداً على الغداء. ولم أرد جرح مشاعرها ولذلك أعطيتها لقطّنا بايلسر، ولكن حتى بايلسر لم يأكلها، ولذلك اضطررتُ لإلقائها من النافذة.

قالت بنتش وهي تربت على القط الذي كان يموء عند

قدمها: إن بايلسر شديد التدقيق فيما يأكله!

– وماذا عن ضرسك يا عزيزتي؟ هل فحصتِه؟

– نعم، ولم يؤلمني كثيراً. وقد ذهبت -أيضاً- لرؤية العمة جين مرة أخرى.

– يا لها من عجوز مسكينة! أرجو ألاّ تكون قد ضعفت.

قالت بنتش مبتسمة: أبداً.

* * *

في صباح اليوم التالي أخذت بَنتش حزمة جديدة من أزهار الأقحوان إلى الكنيسة. كانت الشمس تشع مرة أخرى من خلال النافذة الشرقية، ووقفت بنتش على عتبات المذبح الذي تسقط عليه الأشعة الملونة وقالت تخاطب نفسها: ستكون فتاتك الصغيرة على ما يرام. سأحرص أنا على هذا الأمر... أعدك بذلك.

* * *

قضية الخادمة المثالية

- أرجوك يا سيدتي، هل لي أن أتحدث معك لحظة؟

ربما خيِّل للمرء بأن هذا الطلب من باب السخافة طالما أن إدنا، خادمة الآنسة ماربل، كانت تتحدث مع سيدتها في تلك اللحظة بالفعل.

ولكن الآنسة ماربل أجابتها فوراً وقد أخذت العبارة على ظاهرها: بالتأكيد يا إدنا، ادخلي وأغلقي الباب. ما الأمر؟

أغلقت إدنا الباب طائعةً وتقدمت نحو سيدتها في الغرفة وطوت طرف مريلتها بأصابعها وابتلعت ريقها مرة أو مرتين.

قالت الآنسة ماربل مشجعة: نعم يا إدنا؟

- آه، أرجوك يا سيدتي! إنها ابنة عمي غلاديس.

قالت الآنسة ماربل وقد قفز تفكيرها إلى أسوأ النتائج، تلك النتائج التي كانت معتادة مع الأسف: يا إلهي! هل وقعت في مشكلة؟

أسرعت إدنا تطمئنها: آه، لا يا سيدتي، لا شيء من هذا؛ غلاديس ليست من هذا النوع من الفتيات. إنها متضايقة فقط

لأنها فقدت عملها.

- يا للمسكينة! أنا آسفة لسماع هذا. كانت تعمل في أولد هول مع الآنسة سكينر، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدتي، هذا صحيح. وقد انزعجت غلاديس من ذلك... انزعجت جداً.

- ومع ذلك فقد غيرت غلاديس مكان عملها عدة مرات من قبل، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدتي. إنها تحب التغيير دائماً، ولا يبدو أنها تستقر في مكان أبداً، ولكنها كانت هي التي تترك مخدوميها دائماً!

قالت الآنسة ماربل بجفاء: وقد حدث العكس هذه المرة، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدتي، ممّا ضايق غلاديس كثيراً.

بدت الآنسة ماربل مدهوشة بعض الشيء؛ فهي تتذكر غلاديس (التي كانت تأتي -من وقت لآخر في أيام عطلها- لتشرب الشاي في المطبخ) فتاةً ممتلئة مرحة ذات مزاج هادئ لا تهزه الرياح.

أكملت إدنا: السبب يا سيدتي هو الطريقة التي وقع بها الأمر... الطريقة التي بدت بها الآنسة سكينر.

سألتها الآنسة ماربل بصبر: وكيف بدت الآنسة سكينر.

هذه المرة انطلقت إدنا بعيداً في سرد نشرتها الإخبارية: آه يا سيدتي! كان الأمر صدمة شديدة لغلاديس؛ إذ فُقِد أحد دبابيس الزينة للآنسة إيميلي وحدثت ضجة لا أول لها ولا آخر. وبالطبع فإن أحداً لا يحب وقوع شيء كهذا. إنه عمل مزعج يا سيدتي، وقد ساعدت غلاديس في البحث عنه في كل مكان، وقالت الآنسة لافينيا إنها ستذهب لإبلاغ الشرطة عنه، ثم ظهر بعد ذلك، حيث كان قد دُفع إلى مؤخرة الدُّرج في طاولة الزينة، وشعرت غلاديس بارتياح بالغ لذلك.

وفي اليوم التالي كُسر أحد الصحون فدخلت الآنسة لافينيا على غلاديس غاضبة وأخبرتها أن أمامها شهراً قبل أن تغادر البيت. وتشعر غلاديس أن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب كسر الصحن، وإنما كانت الآنسة لافينيا تتعذر بذلك فقط وأنه لا بد من أن يكون بسبب دبوس الزينة، حيث يظنون أنها هي التي أخذته ثم أعادته عندما ذكروا أمر إبلاغ الشرطة، وما كانت غلاديس لتفعل مثل هذا الأمر، ولم تفعله أبداً من قبل. وهي تشعر أن هذا الأمر سينتشر وتسوء سمعتها وهو أمر مهم بالنسبة لفتاة كما تعلمين يا سيدتي.

أومأت الآنسة ماربل برأسها. ورغم أنها لا تُكِنُّ محبة خاصة لغلاديس المتبجحة المعتدّة برأيها، إلاّ أنها كانت واثقة تماماً من أمانة الفتاة الفعلية، وكان بوسعها أن تتصور كيف أن هذا الأمر قد ضايقها.

قالت إدنا بحزن: أتساءلُ إن كان بوسعك القيام بشيء حيال هذا الأمر يا سيدتي؟ إن غلاديس في حالة يرثى لها.

قالت الآنسة ماربل بحزم: أخبريها ألاّ تكون سخيفة. إذا لم تكن قد أخذت الدبوس (وأنا واثقة من أنها لم تأخذه) فليس من سبب يدعوها للانزعاج.

قالت إدنا حزينة: ولكن الخبر سينتشر.

قالت الآنسة ماربل: إنني... إن لي زيارة إلى تلك المنطقة بعد ظهر اليوم، وسأتحدث مع الآنستين سكينر.

- آه، شكراً لك يا سيدتي.

* * *

كان أولد هول بيتاً فكتورياً كبيراً تحيط به الغابات والأراضي التابعة له، وحيث قد ثبت عدم إمكانية تأجيره أو بيعه على حالته هذه، فقد قام متعهد بتقسيمه إلى أربع شقق مع نظام مركزي لتسخين الماء، ويتم استخدام الأرض حوله من قبل المستأجرين استخداماً مشتركاً.

وقد كانت التجربة مُرضية؛ فقد استأجرت عجوز ثرية غريبة الأطوار إحدى هذه الشقق مع خادمتها، وكانت العجوز تهوى الطيور وتستمتع بتجميعها على الطعام كل يوم. والشقة الثانية استأجرها قاض هندي متقاعد وزوجته. والشقة الثالثة يشغلها عريسان تزوجا حديثاً. أما الرابعة فقد استأجرتها -قبل شهرين

فقط- امرأتان عانسان من عائلة سكينر. ولم تكن بين المجموعات الأربع التي تسكن هذه الشقق أي علاقات؛ حيث لا يوجد شيء مشترك بينها، وقيل إن صاحب البيت قد وصف هذا بأنه شيء رائع؛ فقد كان يخشى من تكوُّن صداقات بين المستأجرين يتبعها نفور وشكاوى تقدم له.

كانت الآنسة ماربل تعرف جميع المستأجرين، رغم أنها لم تكن معرفة جيدة. كانت الآنسة لافينيا سكينر (وهي الأخت الكبرى) ما يمكن تسميته «النحلة العاملة» في هذا البيت، أما أختها الصغرى، الآنسة إيميلي، فكانت تقضي معظم وقتها في السرير تعاني من أوجاع مختلفة رأت قرية سينت ميري ميد أنها أوجاع مُتخيَّلة. وحدها الآنسة لافينيا كانت تؤمن -بإخلاص- بعذاب أختها وصبرها على بلواها، وكانت تركض في القرية عن طيب خاطر، جيئة وذهاباً، وهنا وهناك، من أجل أشياء «اشتهتها أختي فجأة».

كان رأي قرية سينت ميري ميد أنه لو كانت الآنسة إيميلي تعاني -فعلاً- من نصف ما تزعم أنها تعاني منه لكانت أرسلت في طلب الدكتور هيدوك منذ وقت طويل، ولكن عندما لمّح بعضهم للآنسة إيميلي بذلك أغلقت عينيها بعنجهية وتمتمت بأن حالتها لم تكن بسيطة، فقد تحير أفضل أطباء لندن في فهمها... وأن طبيباً جديداً رائعاً قد وضع لها برنامج علاج ثورياً، ولذلك فهي ترجو أن تتحسن صحتها بموجب هذا العلاج (وقالت إن طبيباً عاماً بليداً لا يمكن أن يفهم حالتها).

قالت الآنسة هارتنيل الجريئة: أرى أنها كانت حكيمة إذ لم ترسل في طلبه؛ فقد كان من شأن الدكتور هيدوك أن يقول لها -بأسلوبه المبتهج المعتاد- إنها لا تعاني من شيء ويطلب منها أن تنهض من سريرها ولا تضخم الأمور، وكان سيقول إن ذلك سينفعها كثيراً!

ولكن مع رفض الآنسة إيميلي لمثل هذا العلاج العشوائي واصلت استلقاءها على الأرائك وإحاطة نفسها بعلب الأدوية الصغيرة، كما مضت في رفض أي شيء يُطبخ من أجلها وطلب أشياء أخرى تكون -في العادة- أشياء يصعب الحصول عليها.

* * *

فتحت غلاديس الباب للآنسة ماربل وهي تبدو أكثر اكتئاباً مما سبق للآنسة ماربل أن رأتها في أي وقت مضى. وفي غرفة الجلوس (وهي جزء من غرفة الاستقبال القديمة التي تمت تجزئتها إلى غرفة طعام وغرفة استقبال وحمام ومكان لخزانة الخادمة) نهضت الآنسة لافينيا لتحية الآنسة ماربل.

كانت لافينيا سكينر في الخمسين من عمرها، طويلة ونحيلة وذات صوت أجش وسلوك يتسم بالسرعة والفجائية. قالت: تسرني رؤيتك. إيميلي مستلقية في سريرها، فالمسكينة تشعر بالضعف اليوم. أرجو أن تتمكن من رؤيتك؛ فهذا سيبهجها، ولكن تمر عليها أوقات لا تستطيع فيها رؤية أحد. مسكينة! إنها تتحلى بصبر رائع.

أجابتها الآنسة ماربل بأدب. وحيث أن موضوع الحديث الأساسي في قرية سينت ميري ميد هو الخدم، فلم يكن صعباً توجيه الحديث في ذلك الاتجاه، ثم قالت الآنسة ماربل إنها سمعت أن تلك الفتاة اللطيفة غلاديس هولمز ستترك العمل.

أومأت الآنسة لافينيا موافقةً وقالت: بعد أسبوع من يوم الأربعاء. لقد كسرت أشياء، وأنا لا أستطيع تحمل ذلك.

تنهدت الآنسة ماربل وقالت: علينا -جميعاً- أن نتحمل أموراً كثيرة في هذه الأيام، فمن الصعوبة بمكان إقناع الفتيات بالقدوم إلى الريف للعمل.

ثم سألت مضيفتها إن كانت ترى أن من الحكمة إخراج غلاديس، فاعترفت الآنسة لافينيا قائلة: أعرف أن من الصعب الحصول على خدم. عائلة ديفيرو لم تتمكن من الحصول على أية خادمة. ولكنني لا أستغرب ذلك؛ فأفرادها يتشاجرون دائماً ويتناولون الطعام في أي وقت... وتلك الزوجة لا تعرف شيئاً عن التدبير المنزلي. إنني أشفق على زوجها! كما أن عائلة لاركين قد فقدت خادمتها، وأنا لا أستغرب ذلك أيضاً بالطبع، بسبب المزاج الهندي للقاضي وإصراره على أن يتم تحضير مشروبه الهندي الغريب في الساعة السادسة صباحاً، بالإضافة إلى شكاوى السيدة لاركين الدائمة.

- ألا ترين -إذن- أن بإمكانك إعادة التفكير في قرارك بخصوص غلاديس؟ إنها فتاة لطيفة حقاً، وأنا أعرف عائلتها معرفة

جيدة، وهي عائلة لا غبار عليها ويتمتع أفرادها بالأمانة.

هزت الآنسة لافينيا رأسها بالرفض وقالت بشكل يوحي بالأهمية: إن لدي أسبابي.

تمتمت الآنسة ماربل: فهمتُ أنك أضعت دبوس زينة...

– من الذي تكلم بذلك؟ أظنها الفتاة. إنني –بصراحة– أكاد أكون واثقة من أنها هي التي أخذته، ثم خافت وأعادته. ولكن المرء لا يستطيع قول شيء طبعاً ما لم يتأكد تماماً.

ثم غيّرت موضوع الحديث وقالت: تعالي لرؤية إيميلي يا آنسة ماربل. أنا واثقة من أن هذا سيحسّن وضعها.

تبعتها الآنسة ماربل طائعة إلى حيث دقت لافينيا باباً، ثم أدخلت ضيفتها إلى أفضل غرفة في الشقة حيث كانت الستائر تحجب معظم الضوء الداخل إليها. كانت إيميلي مستلقية على سريرها تستمتع –كما هو واضح– بالعتمة النسبية وبمعاناتها الغامضة.

أظهر الضوء الخافت أنها امرأة هزيلة يبدو عليها التردد، مع كثير من الشعر الأصفر الذي غزاه الشيب، وقد لفّته حول رأسها بلا ترتيب فانبثقت منه خصلات بحيث بدا الرأس كله أشبه بعش طائر لا يمكن لأي طائر يحترم نفسه أن يفتخر به.

شرحت إيميلي بصوت ضعيف وبعينين نصف مغمضتين أن هذا اليوم هو «أحد أيامها السيئة»، ثم قالت بنبرة حزينة: أسوأ ما

في المرض هو شعور المرء بأنه أصبح عبئاً ثقيلاً على كل من حوله! يا عزيزتي لافي... أكره التسبب لك بالمتاعب، ولكن ليتك تملئين لي زجاجة الماء الساخن بالطريقة التي أحبها، فإذا كانت مملوءة عن آخرها تكون ثقيلة علي كثيراً، وإذا كانت ناقصة فإنها تبرد على الفور!

– أنا آسفة يا عزيزتي. أعطيني إياها؛ سأُنقص منها قليلاً.

– إن كنت ستفعلين ذلك فالأفضل أن تعيدي تعبئتها. أظن أنه لا يوجد كعك في البيت؟ لا، لا، هذا لا يهم؛ بوسعي الاستغناء عنه. بعض الشاي الخفيف وشرائح الليمون... لا يوجد ليمون؟ لا أستطيع –حقاً– شرب الشاي دون ليمون. أظن أن الحليب كان مُحمّضاً قليلاً هذا الصباح، مما جعلني ضد إضافة الحليب إلى الشاي. هذا لا يهم... بوسعي الاستغناء عن الشاي. إلاّ أنني أشعر بالضعف الشديد. يقولون إن المحار مُغذٍّ جداً. أتساءل إن كان بوسعي اشتهاء القليل منه؟ لا، لا؛ ستتعبين كثيراً في الحصول عليه في هذا الوقت المتأخر من النهار. يمكنني الصوم حتى الغد.

تركت لافينيا الغرفة وهي تتمتم بكلام غير مترابط عن ركوب دراجة إلى القرية، وابتسمت الآنسة إيميلي لضيفتها ابتسامة باهتة وقالت إنها تكره التسبب بمتاعب لأي شخص.

* * *

في مساء ذلك اليوم أخبرت الآنسة ماربل إدنا أنها تخشى ألاّ تكون مساعيها قد تكللت بالنجاح، وقد انزعجت قليلاً إذ

وجدت أن الإشاعات التي تطعن في أمانة غلاديس قد انتشرت في القرية.

في مكتب البريد دخلت الآنسة ويذربي في حديث معها قائلة: يا عزيزتي جين، لقد أعطتها المرأتان شهادة خدمة خطية ورد فيها أنها كانت مطيعة وهادئة ومحترمة، ولكن الشهادة لم تأتِ على ذكر الأمانة. يبدو لي أن ذلك شديد الدلالة! سمعت أن مشكلة وقعت بخصوص دبوس زينة. لا بد من أن في الأمر شيئاً، لأن المرء لا يتخلى عن خادمة -في هذه الأيام- إلاّ إذا كان الأمر خطيراً. سوف تجدا صعوبة بالغة في الحصول على خادمة أخرى؛ فلن تذهب الفتيات للعمل في أولد هول. لن تجد الآنستان سكينر خادمة أخرى، وعندها ربما نهضت تلك الأخت المتمارضة من فراشها لتفعل شيئاً!

وقد اغتمت القرية كثيراً عندما علمت أن الآنستين سكينر قد أحضرتا، عن طريق إحدى الوكالات، خادمة جديدة كانت نموذجاً مثالياً للخادمة بكل المقاييس.

قالت الآنسة لافينيا تخاطب الآنسة ماربل في محل السمّاك: لديها شهادة تزكية تمتدحها وتوصي بتوظيفها من بيت عملت به ثلاث سنوات، وهي تفضّل العمل في الريف، كما أنها تطلب راتباً أقل مما تطلبه غلاديس. أشعر أننا محظوظتان كثيراً بها.

- حسناً، يبدو ذلك أروع من أن يتحقق.

بعد ذلك أصبح رأي قرية سينت ميري ميد أن الخادمة

المثالية ستتنصل في آخر لحظة ولا تأتي. ولكن أياً من هذه التكهنات لم يتحقق، واستطاعت القرية أن ترى هذه الخادمة الكنز (واسمها ماري هيغنز) وهي تعبر القرية في سيارة أجرة متجهة إلى أولد هول. ولا بد من الاعتراف بأن مظهرها كان جيداً. كانت امرأة يوحي شكلها بالاحترام وتتأنق في لبسها.

وعندما زارت الآنسة ماربل أولد هول بعد ذلك (بمناسبة تجنيد متطوعين للبيع في المهرجان الخيري السنوي) فتحت ماري هيغنز لها الباب. بدت -بالتأكيد- خادمة رائعة في نحو الأربعين من عمرها، ذات شعر أسود مرتب وخدين متوردين وجسد مليء يستره ثوب بسيط أسود وفوقه صدرية الخدم البيضاء وغطاء الرأس الذي تضعه الخادمات... "مثال النوع القديم الرائع من الخادمات" كما وصفتها الآنسة ماربل لاحقاً، بالإضافة إلى صوتها اللائق المسموع المحترم الذي يختلف كثيراً عن نبرات غلاديس المرتفعة.

كانت الآنسة لافينيا أقل انزعاجاً من العادة، ورغم أنها أسفت لأنها لن تستطيع المشاركة في البيع في المهرجان بسبب انشغالها بأختها، إلاّ أنها تبرعت بمبلغ كبير من المال ووعدت بإرسال رزمة من الماسحات وجوارب الأطفال لبيعها لصالح المهرجان.

شكرتها الآنسة ماربل على سخاء نفسها، وبعد ذلك قالت لافينيا: إنني أشعر -حقاً- بأنني مدينة لماري بالكثير، وأنا مسرورة جداً إذ كان لي من الحزم ما جعلني أتخلص من تلك الفتاة الأخرى. إن ماري لا تقدر بثمن... تطبخ طبخاً لذيذاً وتخدم

بصورة رائعة وتحافظ على شقتنا الصغيرة نظيفة جداً وتنظف تحت الفرشات كل يوم... كما أنها رائعة حقاً مع إيميلي!

سألتها الآنسة ماربل بسرعة عن صحة إيميلي فأجابت: آه، المسكينة! كانت مريضة جداً في المدة الأخيرة، وهي لا تملك رد ذلك طبعاً، ولكن وضعها يعقد الأمور أحياناً. تريد أن نطبخ لها أشياء معينة ثم عندما نحضر لها ما طلبته تقول إنها لا تستطيع أن تأكل الآن... ثم تريد الطعام بعد نصف ساعة فيتوجب إعداده مرة أخرى. وهذا يعني الكثير من العمل، ولكن ماري لا تهتم بذلك أبداً لحسن الحظ، بل هي تقول إنها معتادة على العناية بالمرضى وتفهمهم. أمر مريح جداً.

- عظيم. إنكما محظوظتان.

- نعم، بالتأكيد. إنني أشعر بأن ماري قد جاءتنا هبة من السماء بالفعل.

- يبدو لي الأمر أروع من أن يكون حقيقياً. من شأني... من شأني أن أحرص قليلاً لو كنتُ مكانك.

لم تستطع لافينيا سكينر إدراك مغزى هذه الملاحظة. قالت: آه! أؤكد لك أنني أبذل كل ما أستطيع لأجعلها ترتاح. لا أعرف ماذا أفعل لو تركتنا.

قالت الآنسة ماربل: "لا أحسبها ستترك إلاّ عندما تصبح مستعدة لذلك"، ثم نظرت إلى مضيفتها نظرة متمعنة.

قالت الآنسة لافينيا: لو قُدِّر للمرء أن يتخلص من أعباء البيت لوجد أن ذلك يزيح عن كاهله عبئاً ثقيلاً، أليس كذلك؟ كيف تعمل خادمتك إدنا؟

- لا بأس بعملها. ليست من الطراز الرفيع، فهي ليست كخادمتك ماري، ومع ذلك فإنني أعرف كل شيء عن إدنا لأنها فتاة من القرية.

وعندما خرجت من الغرفة إلى الصالة سمعت صوت المريضة يرتفع غاضباً: لقد تُركت هذه الكمّادة بحيث جفّت تماماً... وقد أكد الدكتور البرتون بأنها يجب أن تبلل بماء جديد باستمرار. اتركيها هناك. أريد فنجاناً من الشاي وبيضة مسلوقة... تذكّري أن تغليها مدة ثلاث دقائق ونصف فقط، وأرسلي لي الآنسة لافينيا.

خرجت ماري القديرة من غرفة النوم وخاطبت لافينيا: "الآنسة إيميلي تريدك يا سيدتي". ثم ذهبت لتفتح الباب للآنسة ماربل وساعدتها في لبس معطفها وتسليمها المظلة بطريقة بالغة التهذيب.

أخذت الآنسة ماربل المظلة ولكنها أسقطتها، ثم حاولت التقاطها عن الأرض فأسقطت حقيبتها التي انفتحت. جمعت ماري -بأدب- الأغراض المختلفة التي سقطت من الحقيبة... منديلاً، ودفتر مواعيد، ومحفظة جلدية قديمة، وبعض القطع النقدية، وحبة من حلوى النعنع.

استلمت الآنسة ماربل حبة النعنع وعلى وجهها علامات

الارتباك وقالت: يا إلهي! لا بد من أن هذه الحلوى لابن السيدة كليمنت الصغير. أذكر أنه كان يمصّها، ثم أخذ حقيبتي ليلعب بها، ويبدو أنه وضع هذه الحبة فيها. إنها دبقة كثيراً، أليس كذلك؟

– هل آخذها منك يا سيدتي؟

– آه، أرجوك. أشكرك كثيراً.

انحنت ماري لرفع الغرض الأخير عن الأرض، وكانت مرآة صغيرة صاحت الآنسة ماربل بحماسة وهي تأخذها منها: كم أنا محظوظة لأنها لم تتكسر!

وهكذا غادرت، فيما وقفت ماري –بأدب– قرب الباب وهي تحمل حبة الحلوى بوجه خال من أي تعبير.

* * *

ولمدة عشرة أيام كان على قرية سينت ميري ميد أن تتحمل سماع روائع خادمة الآنستين لافينيا وإيميلي. وفي اليوم الحادي عشر استيقظت القرية على النبأ المثير.

ماري المثالية، مفقودة! لم تنم في سريرها في الليلة التي مضت، وقد كان الباب الأمامي للشقة مفتوحاً قليلاً... لقد انسلّت بهدوء أثناء الليل خارج الشقة.

ولم تكن ماري وحدها المفقودة؛ إذ فُقد معها –أيضاً–

دبوسا زينة وخمسة خواتم للآنسة لافينيا، وثلاثة خواتم أخرى وقرطٌ وعقد وأربعة دبابيس زينة للآنسة إيميلي!

وكانت مجرد بداية لفصلٍ من محنة؛ إذ فقدت السيدة ديفيرو الشابة مجوهرات الألماس التي كانت تحتفظ بها في دُرج غير مقفل، بالإضافة إلى بعض معاطف الفراء التي أهديت لها في زفافها. كما أن بعض الجواهر قد سرقت من شقة القاضي وزوجته مع مبلغ من النقود. أمّا ساكنة الشقة الرابعة في المجمع، السيدة كارمايكل، فقد كانت الضحية الكبرى؛ إذ لم تفقد بعضاً من أثمن جواهرها فحسب، بل كانت تحتفظ في شقتها بمبلغ كبير من النقود اختفى هو أيضاً. كان ذلك في يوم عطلة خادمتها جانيت، وكانت سيدتها معتادة على المشي في الأراضي التابعة للبيت عند الغسق لإطعام الطيور كسرات الخبز. وبدا واضحاً أن ماري، الخادمة المثالية، كانت تملك مفاتيح تناسب جميع الشقق!

لا بد من الاعتراف بحدوث نوع من متعة التشفي بين أهالي سينت ميري ميد؛ فقد تباهت لافينيا كثيراً بخادمتها الرائعة ماري، وكثيراً ما كان المرء يسمع في القرية مَن يقول: وطوال الوقت لم تكن الفتاة سوى لصة عادية!

وقد تبع ذلك انكشاف أشياء مثيرة. لم تختف ماري اختفاء تاماً فحسب، ولكن الوكالة التي وظّفتها وشهدت على صحة وثائقها ذُعرت إذ اكتشفت أن ماري هيغنز التي قدمت طلب توظيف عندها وقدمت لها شهادات الخبرة، لم يكن لها وجود أبداً. كان ذلك اسماً لخادمة حقيقية عاشت مع أخت حقيقية

لكاهن كبير، ولكن ماري هيغنز الحقيقية كانت تعيش الآن بهدوء في مكان في كورنوول.

أُجبر المفتش سلاك على الاعتراف قائلاً: الأمر كله في غاية الذكاء، ورأيي أن هذه المرأة تعمل مع عصابة. لقد وقعت قضية مشابهة في نورثمبرلاند قبل سنة، ولم يُعثر على أي أثر للمسروقات، ولم يتم الإمساك بالفتاة. ولكننا سنكون هنا، في مَتش بينهام، أفضل منهم بكثير!

كان المفتش سلاك واثقاً من نفسه دائماً.

ومع ذلك مرت الأسابيع وظلت ماري هيغنز ضائعة، وقد بذل المفتش سلاك جهوداً مضاعفة ولكن دون جدوى. وبقيت الآنسة لافينيا حزينة، وانزعجت الآنسة إيميلي وذُعرت من حالتها إلى الحد الذي استدعت معه الدكتور هيدوك.

كانت القرية كلها متلهفة على معرفة رأيه في ادعاءات الآنسة إيميلي عن سوء صحتها. ولم يكن بوسع أهل القرية أن يسألوه عن ذلك طبعاً، ولكن معلومات مُرضية عن هذا الموضوع تسربت من خلال السيد ميك، مساعد الصيدلي الذي كان يخرج مع كلارا خادمة السيدة برايس رايدلي. وقد عُرف –وقتها– أن الدكتور هيدوك قد وصف للمريضة مزيجاً من الأسافيتيدا والفاليريان، وهي وصفة قال السيد ميك إنها كانت تُعطى للمتمارضين في الجيش!

وبعد ذلك بوقت قصير عُلم أن الآنسة إيميلي لم تقتنع

بالرعاية الطبية التي نالتها، وقد أعلنت أنها تشعر أن من واجبها (وصحتها على هذه الحال) أن تكون قريبة من الطبيب الأخصائي في لندن الذي يفهم حالتها، وقالت إن في ذلك إنصافاً للافينيا. وقد عُرضت الشقة بعد ذلك للإيجار.

بعد ذلك بأيام قليلة ذهبت الآنسة ماربل إلى مركز الشرطة في مَتش بينهام وهي مُحمرّة الوجه مضطربة، وطلبت رؤية المفتش سلاك.

لم يكن المفتش سلاك يحب الآنسة ماربل، ولكنه كان يعلم أن قائد الشرطة الكولونيل ميلشيت لم يكن يشاطره هذا الرأي، ولذلك فقد استقبلها بشيء من التذمر.

– مساء الخير يا آنسة ماربل، ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

– آه، أخشى أن تكون مستعجلاً يا عزيزي.

– لدي عمل كثير، ولكني أستطيع اقتطاع بضع لحظات.

– أرجو أن أتمكن من قول ما أريده بطريقة صحيحة. من الصعب جداً أن يعبّر المرء عمّا في نفسه، ألا تظن ذلك؟ لا أظنك ترى ذلك. ولكنني لم أتعلم وفق الأسلوب الحديث؛ فلم تكن عندنا إلاّ مربية أطفال كانت تعلمنا تاريخ الملوك في إنكلترا ومعلومات عامة... عن الدكتور بروَر، وعن وجود ثلاثة أنواع من أمراض الحنطة...

سألها المفتش سلاك وقد احمر وجهه: أجئتِ لتحدثيني عن أمراض الحنطة؟

أسرعت الآنسة ماربل لنفي أي رغبة لها في الحديث عن أمراض الحنطة: آه، لا، لا. كان مجرد مثال. كما كانت تعلمنا كيفية صناعة الإبر، وغير ذلك... موضوعات مشتتة، ولكنها لا تعلم المرء كيف يمضي قدماً إلى ما يريد قوله، وهو ما أريد القيام به الآن. إن قدومي إلى هنا يتعلق بخادمة الآنسة سكينر، غلاديس.

قال المفتش سلاك: بل ماري هيغنز.

– آه، نعم، تلك هي الخادمة الثانية. ولكني أقصد غلاديس هولمز... فتاة وقحة بعض الشيء ومعجبة بنفسها كثيراً، ولكنها فتاة أمينة تماماً، ومن المهم جداً إدراك ذلك.

– لا توجد تهمة ضدها حسب علمي.

– نعم، أعرف ذلك، ولكن هذا يجعل الأمر أكثر سوءاً؛ لأن ذلك يعني أن الناس سيستمرون في شكوكهم. آه، أعرف أنني لا أعبر عما أريده بشكل جيد. الذي أقصده هو أن أهم شيء هو العثور على ماري هيغنز.

– نعم، بالتأكيد. وهل لديك أي أفكار بخصوص هذا الموضوع؟

– الواقع أن لديّ مثل هذه الأفكار. أيمكنني أن أسألك سؤالاً؟ ألا تفيدكم بصمات الأصابع؟

– آه، في هذه النقطة –بالذات– كانت الفتاة أذكى من تقديراتنا؛ إذ يبدو أنها كانت تقوم بمعظم عملها وهي تلبس قفازات من المطاط أو قفازات الخدم. وكانت حريصة جدا بحيث مسحت كل شيء في غرفة نومها وعلى المجلى... لم نستطع العثور على بصمة واحدة لأصابعها في البيت!

– لو حصلتم على بصماتها، فهل سيساعدكم هذا؟

– قد يساعدنا يا سيدتي. ربما كانت البصمات معروفة لدى شرطة سكوتلانديارد؛ فأنا أميل إلى الظن بأن هذه ليست أول عملية لها!

أومأت الآنسة ماربل برأسها مبتهجة، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة صغيرة بداخلها مرآة صغيرة ملفوفة بالقطن الطبي.

قالت الآنسة ماربل: هذه المرآة عليها بصمات الخادمة. أظن أنها ستكون كافية... إذ كانت قد أمسكت بأصابعها حبة حلوى دبقة قبلها بلحظة.

حدق المفتش سلاك إليها وقال: هل أخذت بصمات أصابعها متعمدة؟

– بالطبع.

– إذن كنت تشكين فيها؟

– نعم، فقد خطر لي أنها أروع من أن تكون حقيقية. وقد

أخبرت الآنسة لافينيا -عملياً- بذلك، ولكنها لم تفهم التلميح!

قال المفتش سلاك وهو يستعيد توازنه: حسناً، أنا شاكر لك كثيراً. سنرسل هذه البصمات إلى شرطة سكوتلانديارد لنرى ما يقولونه.

ثم سكت فيما كانت الآنسة ماربل قد أمالت رأسها جانباً وراحت تنظر إليه نظرات ذات مغزى كبير، ثم قالت: ألا ترى أن من الممكن أن تبحث في مكان أقرب إلينا يا حضرة المفتش؟

- ماذا تقصدين يا آنسة ماربل؟

- من الصعب شرح ذلك، ولكن عندما يصادفك شيء غريب فإنك تلاحظه... رغم أن الأشياء الغريبة قد تكون في الغالب تافهة. لقد أحسست بذلك من البداية، أقصد بخصوص غلاديس ودبوس الزينة. إنها فتاة أمينة ولم تسرق الدبوس. إذن لماذا ظنت الآنسة سكينر أنها فعلت ذلك؟ إن الآنسة سكينر ليست بالغبية، بل هي أبعد ما تكون عن ذلك! لماذا كانت حريصة جداً على إبعاد الفتاة رغم أنها كانت فتاة جيدة في وقت يعزّ فيه وجود خدم؟ كان ذلك تصرفاً غريباً، ولذلك تساءلت في نفسي... تساءلت كثيراً. كما لاحظت شيئاً آخر غريباً! إن الآنسة إيميلي مصابة بوسواس المرض، لكنها أول موسوسة لم ترسل في طلب طبيب على الفور. إن المصابين بوسواس المرض يحبون الذهاب إلى الأطباء، لكن الآنسة ايميلي لم تكن كذلك!

- ما الذي تلمّحين له يا آنسة ماربل؟

- إنني ألمّح إلى أن الآنسة لافينيا والآنسة إيميلي امرأتان غريبتان. الآنسة إيميلي تقضي كل وقتها تقريباً في غرفة مظلمة. ولو كان ذلك الشعر هو شعرها الطبيعي وليس باروكة فإنني سأكون مغفلة جداً! ورأيي هو التالي: إن من الممكن -تماماً- بالنسبة لامرأة نحيلة شاحبة منتحبة رمادية الشعر أن تكون هي نفسها امرأة سوداء الشعر متوردة الخدين ممتلئة الجسم.. كما أنني لم أجد أحداً رأى الآنسة إيميلي وماري هيغنز معاً في وقت واحد.

توقفت الآنسة ماربل قليلاً ثم مضت قائلة: لقد كان لديهما الكثير من الوقت للحصول على نسخ لجميع المفاتيح ولمعرفة كل شيء عن المستأجرين الآخرين... ثم، بعد ذلك، التخلص من الفتاة الخادمة. وذات ليلة تخرج الآنسة إيميلي فتمشي بسرعة عبر البساتين وتصل إلى محطة القطارات في اليوم التالي بصفتها ماري هيغنز. وبعد ذلك، وفي اللحظة المناسبة، تختفي ماري هيغنز وتبدأ مطاردتها. سأخبرك أين تجدها يا حضرة المفتش: على أريكة الآنسة إيميلي سكينر! خذ بصمات أصابعها إن لم تصدقني، ولكنك ستجدني على صواب! ليست الآنستان سكينر إلاّ زوجاً من اللصوص الأذكياء، ولا شك في أنهما على علاقة مع شخص ذكي يستلم منهما مسروقاتهما. ولكنهما لن تفلتا من العقوبة هذه المرة! لن أسمح بالإساءة لإحدى فتيات قريتي والطعن في أمانتها بهذه الطريقة! إن غلاديس هولمز فتاة أمينة لا تشوبها شائبة، وسيعرف الجميع هذه الحقيقة. وداعاً!

قالت الآنسة ماربل ذلك كله ثم خرجت قبل أن يلتقط

المفتش سلاك أنفاسه ويتمتم قائلاً: وووه! أتراها تكون مُحِقّة؟

وسرعان ما وجد أن الآنسة ماربل كانت مُحقّة مرة أخرى.

* * *

هنأ الكولونيل ميلشيت مفتشه سلاك على كفاءته، وقامت الآنسة ماربل بدعوة غلاديس لتناول الشاي عندها مع إدنا وكلمتها -بجدية- عن ضرورة الاستقرار في وظيفة جيدة عندما تحصل عليها.

* * *

الآنسة ماربل تروي قصة

لا أظنني أخبرتكما -يا عزيزيّ ريموند وجوان- عن ذلك الحادث الغريب الذي وقع قبل بضع سنوات. لا أريد أن أبدو مغرورة بأي شكل. أنا أعرف -بالطبع- أنني لست ذكية أبداً بالمقارنة معكم معشر الشباب؛ فريموند يكتب هذه القصص الحديثة عن شباب كريهين بعض الشيء، وجوان ترسم تلك الرسومات المتميزة لأناس مربوعي الجسم ولهم انتفاخات غريبة في أجسامهم... وهي إبداعات ذكية جداً منكما يا عزيزيّ، ولكن كما يقول ريموند دائماً (وهو يقولها بكل لطف لأنه من ألطف الناس) فإنني فكتورية الذوق إلى حد ميؤوس منه. والآن، ما الذي كنت أقوله؟ آه، نعم. قلت إنني لا أريد أن أبدو مغرورة، ولكنني لا أملك إلاّ أن أُعجب مقدار ذرة صغيرة بنفسي لأنني أظن أنني استطعت، باستخدام قليل من الفطرة السليمة فقط، حلّ مشكلة حيرت عقولاً أذكى من عقلي. ومع ذلك كان عليّ أن أرى بأن الأمر كله كان واضحاً من البداية.

سأحكي لكما قصتي الصغيرة، وإذا ظننتما أنني أميل إلى الغرور بما فعلته فيجب أن تتذكرا أنني استطعت -على الأقل- مساعدة أخٍ لي في الإنسانية كان يعيش محنة شديدة.

كانت بداية معرفتي بالأمر في نحو الساعة التاسعة من

إحدى الليالي، عندما دخلت غوين... (هل تتذكران غوين؟ خادمتي الصغيرة ذات الشعر الأحمر)... دخلت غوين وأخبرتني أن السيد بيثيريك قد جاء لزيارتي ومعه رجل. وكانت غوين قد أدخلتهما إلى غرفة الاستقبال، وكان ذلك تصرفاً صحيحاً منها؛ فقد كنت جالسة في غرفة الطعام لأنني أرى أن من الإسراف إشعال نارين في وقت واحد في بداية الربيع.

طلبتُ من غوين تحضير الشاي وأسرعت إلى غرفة الاستقبال. لا أعرف إن كنتما تتذكران السيد بيثيريك. لقد توفي قبل سنتين، وقد كان صديقاً لي لسنوات عديدة بالإضافة إلى أنه كان يقوم بجميع شؤوني القانونية. كان رجلاً شديد الفطنة ومحامياً ذكياً، ويدير ابنه شؤوني القانونية الآن (وهو شاب لطيف جداً وعصري جداً، ولكني -لسبب ما- لا أشعر معه بتلك الثقة التي كنت أشعرها مع السيد بيثيريك الأب).

أوضحتُ للسيد بيثيريك مسألة النار فقال -دون تردد- إنه سيأتي هو وصديقه إلى غرفة الطعام، ثم قدّم لي صديقه (واسمه السيد رودس) وكان أقرب إلى سن الشباب، لم يتجاوز الأربعين إلاّ قليلاً. وأدركت -على الفور- وجود أمر غير طبيعي أبداً. كان سلوكه غريباً جداً، وقد كان من شأن المرء أن يسميه وقحاً لو لم يدرك أن ذلك المسكين كان يعاني من التوتر.

وبعد أن جلسنا في غرفة الطعام وأحضرت غوين الشاي أوضح السيد بيثيريك سبب زيارته قائلاً: آنسة ماربل، يجب أن تسامحي صديقاً قديماً على إزعاجك بهذه الطريقة. لقد جئت

إليك طلباً للمشورة.

لم أفهم ما عناه، ولكنه أكمل حديثه: عندما يمرض المرء فإنه يحب معرفة رأيين اثنين... رأي الطبيب الأخصائي ورأي طبيب العائلة. والمعتاد هو اعتبار رأي الأخصائي أكثر قيمة، ولكني لا أميل للاتفاق مع هذه النظرة؛ ذلك أن للأخصائي خبرة في مجال اختصاصه فقط... أما طبيب العائلة فربما كان أقل معرفة، ولكن خبرته أوسع.

عرفت قصده تماماً؛ إذ كانت ابنة أختٍ لي قد أسرعت بطفلها -قبل فترة قصيرة من ذلك- إلى أخصائي مشهور في الأمراض الجلدية دون استشارة طبيبها الخاص الذي اعتبرته عجوزاً خرفاً، وقد أمر الأخصائي بعلاج باهظ جداً، وفي النهاية عرفت أن طفلها لم يكن يعاني إلاّ من نوع قليل الشيوع من أنواع الحصبة.

وأنا أذكر هذا، رغم خوفي من الاستطراد، لمجرد أن أوضح تقديري لوجهة نظر السيد بيثيريك... رغم أنني لم أكن أعرف بعد ما الذي كان يرمي إليه، ولذلك قلت: إن كان السيد رودس مريضاً...

وسكتُّ، لأن المسكين ضحك ضحكة مخيفة جداً وقال: أظن أنني سأموت نتيجة دقِّ عنقي خلال بضعة أشهر.

ثم شرح الاثنان لي القضية. كانت جريمة قتل قد حدثت قبل ذلك بفترة وجيزة في بارنشستر، وهي بلدة تبعد نحو عشرين ميلاً من هنا. وأخشى أنني لم أعِرها اهتماماً كبيراً في ذلك الوقت،

لأننا كنا مشغولين في القرية بقضية مثيرة تخص ممرضة المقاطعة، ولذلك أخذت انفعالاتنا واهتماماتنا المحلية الصغيرة حيزاً لم يترك مجالاً لحوادث خارجية مثل زلزال في الهند أوجريمة قتلٍ في بارنشستر، رغم أن أهمية مثل تلك الحوادث أكبر بكثير طبعاً. إن القرى كلها على هذه الشاكلة. ولكنني تذكرت فعلاً أنني قرأت عن امرأة طُعنت في أحد الفنادق، إلاّ أنني لا أذكر اسمها. ولكن اتّضح أنها كانت زوجة السيد رودس. وكأن ذلك لم يكن كافياً لمأساة الرجل... فقد أخذ الرجل يشك في أنه هو الذي قتلها بنفسه.

شرح لي السيد بيثيريك كل ذلك بوضوح تام، وقال إن هيئة المحلفين قد أصدرت بعد جلسة التحقيق حكماً ينسب الجريمة إلى مجهول، ومع ذلك فإن لدى السيد رودس من الأسباب ما يجعله يرى أنه ربما تم اعتقاله خلال أيام، وقد جاء إلى السيد بيثيريك ووضع نفسه تحت تصرفه.

ثم واصل السيد بيثيريك حديثه ليقول إنهما استشارا، في نفس ذلك المساء، السير مالكولم أولد المستشار القانوني للتاج البريطاني، وإنهما أوصيا السير مالكولم بأن يتولى الدفاع عن السيد رودس في حال إحالة القضية إلى المحكمة.

وقال السيد بيثيريك إن السير مالكولم كان شاباً ذا أسلوب عصري، وقد اقترح تبني أسلوب معين في الدفاع. ولكن السيد بيثيريك لم يكن راضياً تماماً عن ذلك الأسلوب في الدفاع. وقد شرح ذلك بقوله: إن القضية -يا سيدتي العزيزة- قد أفسدها ما

أسميتُه رأيَ الأخصائي، فإذا ما أعطيت السير مالكولم قضية ستجدين أنه لا يرى منها إلاّ نقطة واحدةً... الأسلوب الدفاعي الأفضل. ولكن حتى أفضل أساليب الدفاع قد يُغفِل تماماً ما أعتبره النقطة الحيوية؛ إنه لا يقيم وزناً لما وقع فعلاً.

ثم أكمل حديثه ليقول بعض كلمات الإطراء اللطيفة عن فطنتي وحصافتي ومعرفتي بالطبيعة البشرية، وطلب الإذن بأن يخبرني حكاية القضية على أمل أن أستطيع تقديم تفسير معين.

أدركت أن السيد رودس كان متشككاً جداً في قدرتي على إفادته، وكان متضايقاً من إحضاره إلى بيتي، ولكن السيد بيثيريك لم يلتفت إليه وشرع يصف لي الوقائع التي حدثت ليلة الثامن من آذار (مارس).

كان السيد رودس وزوجته يقيمان في فندق كراون في بارنشستر، وكانت السيدة رودس -كما فهمتُ من كلام السيد بيثيريك الحذر- موسوسة قليلاً فيما يخص صحتها، وقد ذهبت لتنام بعد تناول العشاء على الفور. كانت هي وزوجها يسكنان في غرفتين متجاورتين تتصلان بباب بينهما. أما السيد رودس، الذي كان يؤلف كتاباً عن الصخور الصوّانية في فترة ما قبل التاريخ، فقد جلس يعمل في الغرفة المجاورة. وعند الساعة الحادية عشرة جمع أوراقه واستعد لينام، وقبل أن يفعل ذلك ألقى نظرة على غرفة زوجته ليتأكد من عدم حاجتها لشيء. وقد اكتشف أن المصباح الكهربائي مُضاء، وزوجته ممددة على السرير وقد طعنت في القلب. كانت قد ماتت قبل ذلك بساعة واحدة على الأقل...

وربما أكثر. وقد كانت الوقائع كما يلي: كان في غرفة السيدة رودس باب آخر يؤدي إلى الممر، وكان هذا الباب مغلقاً بالمفتاح والمزلاج من الداخل. كما كانت النافذة الوحيدة في الغرفة مغلقة ومقفلة بالمزلاج. وحسب كلام السيد رودس لم يمر أحد من الغرفة التي كان يجلس فيها ما عدا خادمة الغرف التي أحضرت زجاجات الماء الحار. وكان السلاح الذي وجد مغروساً في جسد الضحية عبارة عن خنجر صغير كان موجوداً قبل ذلك على طاولة زينة السيدة رودس، وكانت تستخدمه سكيناً لفتح المغلفات، ولم تكن عليه بصمات أصابع. وخلاصة الموقف أن أحداً لم يدخل غرفة الضحية باستثناء السيد رودس والخادمة.

استفسرتُ منه عن خادمة الفندق، فقال السيد بيثيريك: كان ذلك هو أول ما حقّقنا بشأنه. اسمها ماري هيل، وهي من أهل المنطقة، وقد عملت خادمة غرف في فندق كراون لمدة عشر سنين. ولم نجد -بتاتاً- أي سبب يدفعها إلى الاعتداء، فجأة، على نزيلة في الفندق. وهي، على أية حال، امرأة غبية جداً حتى لتكاد تكون معتوهة. ولم تتبدل شهادتها أبداً؛ قالت إنها أحضرت زجاجة الماء الحار للسيدة رودس وإن السيدة كانت تشعر بالنعاس وتوشك على النوم. وبصراحة فإنني لا أحسب أنها ارتكبت الجريمة، كما أنني واثق من أن أية هيئة محلفين لن ترى ذلك أيضاً.

أكمل السيد بيثيريك حديثه وذكر بعض المعلومات الإضافية: يوجد في أعلى الدرج في فندق كراون ردهة صغيرة يجلس فيها الناس أحياناً ويتناولون القهوة، ويتفرع عن يمينها ممر الباب

الأخير فيه هو باب غرفة السيد رودس، ثم ينعطف الممر بحدة إلى اليمين مرة أخرى وأول باب عند الزاوية هو الباب الذي يؤدي إلى غرفة السيدة رودس، ويمكن للشهود أن يروا كلا البابين. الباب الأول (وهو باب غرفة السيد رودس، وسأسميه الباب «أ») يمكن رؤيته من قبل أربعة أشخاص، اثنين من المسافرين التجار، وزوجين كهلين كانا يتناولان القهوة. وحسب كلامهم لم يدخل أحدٌ أو يخرج من الباب «أ» ما عدا السيد رودس والخادمة. وبالنسبة للباب الآخر في الممر (وهو الباب «ب») فقد كان كهربائي يعمل هناك، وهو يقسم أن أحداً غير الخادمة لم يدخل أو يخرج منه.

كانت قضية غريبة ومثيرة جداً بالتأكيد، ومن حيث الظاهر بدا وكأن السيد رودس هو مَنْ قَتَل زوجته بلا ريب. ولكني رأيت أن السيد بيثيريك كان مقتنعاً تماماً ببراءة موكله، وقد كان السيد بيثيريك رجلاً شديد الذكاء.

وقد روى السيد رودس أثناء التحقيق رواية مترددة ومضطربة عن امرأة كانت قد كتبت رسائل تهديد لزوجته، وفهمتُ أن روايته لم تكن مقنعة أبداً. وعندما التمس السيد بيثيريك منه الكلام قام بشرح موقفه قائلاً: بصراحة لم أصدق هذا الأمر أبداً. ظننتُ أن آمي قد اخترعت معظم هذه الحكاية.

وفهمتُ أن السيدة رودس كانت واحدة من أولئك الكاذبات الرومنسيات اللاتي يقضين حياتهن في تهويل كل ما يحدث لهن. إن المغامرات التي زعمت أنها وقعت لها لم يكن بالإمكان تصديقها؛ فإذا ما انزلقت على قشرة موز صغيرة كان ذلك نجاة

من الموت بأعجوبة، وإذا ما احترقت واقية المصباح فقد أنقذوها من الموت في بناية تحترق! وقد اعتاد زوجها على عدم أخذ كثير من كلامها على محمل الجد، وهو لم يلتفت إلى كلامها عندما زعمت أن امرأة كانت السيدة رودس قد جرحت طفلها في حادث سيارة قد هددتها بالانتقام. وقد وقع الحادث قبل أن يتزوجها، ورغم أنها قرأت على مسامعه رسائل مصاغة بأسلوب محموم، فإنه قد شك في أنها هي التي ألفتها بنفسها (وقد قامت -عملياً- بمثل هذا الأمر مرة أو مرتين)... كانت امرأة ذات ميول هستيرية تتوق إلى الإثارة دون حدود.

كل ذلك بدا لي طبيعياً جداً، بل لقد كانت في قريتنا امرأة تفعل نفس الشيء تقريباً. إن الخطورة في تصرفات هؤلاء الناس تأتي عندما يحدث لهم شيء غريب فعلاً، فلا أحد يصدق أنهم يقولون الحقيقة عندها. وقد بدا لي أن هذا هو ما حدث مع هذه المرأة. وقد فهمتُ أن الشرطة يظنون أن السيد رودس قد لفق هذه الحكاية غير المقنعة لكي يبعد عن نفسه الشبهة.

سألته إن كان في الفندق نساء يُقِمْن بمفردهن. ويبدو أن امرأتين كانتا تقيمان في الفندق... واحدة تدعى السيدة غرانبي، وهي أرملة أنغلو-هندية، وعانس أخرى تدعى الآنسة كاروثرز ذات وجه كوجه الحصان وتُسقط حرف الجيم في كلامها. وقد أضاف السيد بيثيريك أن أكثر التحقيقات دقة قد فشلت في العثور على شخص شاهد أياً منهما قرب مكان الجريمة، ولم يوجد ما يربط أياً منهما بهذا الأمر.

طلبت منه أن يصف لي شكلهما الخارجي، فقال إن السيدة غرانبي ذات شعر غير مرتب يميل إلى الحمرة، شاحبة الوجه، تبلغ الخمسين من عمرها تقريباً، ذات ملابس زاهية ملفتة للنظر نوعاً ما. أما الآنسة كاروثرز فكانت في حوالي الأربعين من عمرها، تلبس نظارة وشعرها قصير كشعر الرجل، وكانت تلبس فوق تنوراتها معاطف رجالية التفصيل.

قلت: يا إلهي! هذا يجعل الأمر صعباً للغاية.

نظر السيد بيثيريك إلي متسائلاً، ولكني لم أُردْ قول أكثر من هذا وقتها، ولذلك سألته عما قاله السير مالكولم أولد.

كان السير مالكولم واثقاً من قدرته على تقديم شهادات طبية متناقضة وعلى اقتراح أسلوب للتغلب على صعوبة غياب البصمات. وسألت السيد رودس عن رأيه فقال إن جميع الأطباء حمقى، ولكنه -شخصياً- لا يستطيع أن يصدق أبداً أن زوجته قد قتلت نفسها. قال ببساطة: "لم تكن من ذلك النوع من النساء..."، وقد صدّقتُه؛ فالأشخاص الهستيريون لا ينتحرون في العادة.

فكرتُ لبضع دقائق ثم سألته إن كان باب غرفة السيدة رودس يفضي مباشرة إلى الممر، ولكن السيد رودس نفى ذلك قائلاً إن هناك مدخلاً صغيراً مع حمّام، وإن الباب الواصل بين هذا المدخل وغرفة النوم هو الذي كان مُقفلاً بالمفتاح والمزلاج من الداخل.

قلت: في هذه الحالة يبدو كل شيء بسيطاً للغاية.

وفعلاً كان الأمر كذلك... كان ذلك أبسط شيء في الدنيا، ومع ذلك بدا أن أحداً لم ير الأمر على ذلك النحو.

راح السيد بيثيريك والسيد رودس يحدقان إليّ ممّا أشعرني بالحرج. وبعدها قال السيد رودس: ربما لم تقدّر الآنسة ماربل المصاعب تماماً.

قلت: بل أظن أنني قدّرتها. توجد أربعة احتمالات... إما أن تكون السيدة رودس قد قُتلت على يد زوجها، أو على يد الخادمة، أو أنها انتحرت، أو قتلها شخص خارجي لم يره أحد يدخل أو يغادر.

تدخّل السيد رودس قائلاً: وهذا مستحيل! لا يمكن لأحد أن يدخل أو يخرج من خلال غرفتي دون أن أراه، ثم إذا نجح أحد في الدخول من خلال باب غرفة زوجتي (دون أن يراه الكهربائي) فكيف يخرج ثانية ويترك الباب مقفلاً بالمفتاح والمزلاج من الداخل؟

نظر السيد بيثيريك إلي وقال بأسلوب يشجعني: حسناً، ماذا تقولين يا آنسة ماربل؟

قلت: أود توجيه سوال. كيف بدت الخادمة يا سيد رودس؟

قال إنه ليس متأكداً. ثم قال إنها كانت تميل إلى الطول كما يظن... ولم يكن يتذكر إن كانت بيضاء أو سمراء.

التفتُّ إلى السيد بيثيريك وسألته نفس السؤال، فقال إنها

كانت متوسطة الطول، شقراء الشعر، زرقاء العينين، ذات بشرة محمرة.

قال السيد رودس: أنت أفضل مني ملاحظة يا بيثيريك.

تجرأتُ على عدم الموافقة على هذه الملحوظة، ثم سألت السيد رودس إن كان يستطيع وصف الخادمة التي تعمل عندي. ولم يستطع لا هو ولا السيد بيثيريك وصفها، فقلت: ألا تدركان ما يعنيه هذا؟ لقد جئتما إلى هنا مشغولَين بشؤونكما الخاصة، والمرأة التي أدخلتكما إلى البيت كانت **مجرد خادمة استقبال**. ونفس الأمر ينطبق على السيد رودس في الفندق؛ فقد رأى زيّها وصدرية الخدم عليها، وكان مستغرقاً في عمله. ولكن السيد بيثيريك حقق مع نفس المرأة بصفة مختلفة لها، وقد نظر إليها باعتبارها **شخصاً**. وهذا ما اعتمدت عليه المرأة التي ارتكبت الجريمة.

وبما أن الاثنين لم يفهما، كان عليّ التوضيح: أعتقدُ أن الحادث جرى بالطريقة التالية: دخلت خادمة الفندق من الباب «أ» وعبرت غرفة السيد رودس إلى غرفة زوجته ومعها زجاجة الماء الحار، ثم خرجت من خلال الباب الذي يفصل بين غرفة السيدة رودس ومدخل الغرفة الذي فيه الحمام ومنه غادرت غرفة السيدة رودس من خلال الباب «ب». بعد ذلك دخلت قاتلتنا المجهولة من نفس الباب «ب» إلى المدخل الصغير وأخفت نفسها هناك بعض الوقت حتى تتأكد من ابتعاد الخادمة، ثم دخلت غرفةَ السيدة رودس وأخذت الخنجر عن طاولة التسريحة (وكانت قد

فحصت الغرفة قبل ذلك الوقت بلا ريب) وذهبت إلى السرير فطعنت المرأة النائمة ومسحت مقبض الخنجر وأغلقت الباب الذي دخلت منه بالمفتاح والمزلاج، ثم خرجت من الغرفة التي كان السيد رودس يعمل فيها.

صاح السيد رودس: ولكني كنت سأراها. وكذلك كان الكهربائي سيراها وهي تدخل.

قلت: لا؛ هنا مكمن خطئك. ما كنت لتراها إن كانت تلبس ملابس خادمة الغرف.

سكتُّ لحظة حتى يستوعبا الفكرة، ثم أكملت: كنتَ منهمكاً في عملك ورأيت، بطرف عينك، خادمة تدخل غرفتك ثم تنتقل منها إلى غرفة زوجتك ثم تعود وتخرج. كانت نفس الملابس... وليس نفس المرأة. وهذا ما رآه من كانوا يشربون القهوة؛ رأوا خادمة تدخل وخادمة تخرج. وقد رأى الكهربائي نفس الشيء. ولو أن الخادمة كانت جميلة جداً فإنني أحسب أن من شأن الرجل أن ينتبه لوجهها (فهذه طبيعة البشر) ولكن إن كانت مجرد امرأة عادية كهلة فإنك لن ترى فيها إلاّ لباس الخادمة... وليس المرأة نفسها.

صاح السيد رودس: من تكون إذن؟

قلت: سيكون هذا صعباً بعض الشيء. ولكن لا بد من أن تكون إحدى المرأتين؛ السيدة غرانبي أو الآنسة كاروثرز. تبدو السيدة غرانبي وكأنها تضع باروكة شعر أصلاً، ولذلك يمكن أن

تظهر بشعرها الحقيقي كخادمة. ومن ناحية أخرى فإن الآنسة كاروثرز بشعرها القصير الذي يشبه شعر الرجال يسهل عليها وضع باروكة لتقوم بأداء دورها. أظن أنكما ستعرفان من منهما التي فعلت ذلك بسهولة تامة، وأنا -شخصياً- أميل إلى الاعتقاد بأنها الآنسة كاروثرز.

وقد كانت تلك -يا عزيزيّ- نهاية الحكاية؛ فقد كان اسم كاروثرز اسماً وهمياً لكنها كانت المرأة القاتلة بالتأكيد. كان في عائلتها عِرق من الجنون، وكانت السيدة رودس (وهي المرأة المستهترة الخطيرة في قيادتها سيارتَها) قد صدمت ابنة المرأة، ممّا أفقد المسكينة صوابها. وقد أخفت جنونها بطريقة ماكرة، (باستثناء كتابتها رسائل مجنونة تماماً لضحيتها المقصودة)، وكانت تتبع آثارها منذ بعض الوقت، وقد وضعت خططها بطريقة ذكية. ولدى مواجهتها بالحقيقة انهارت واعترفت فوراً، والمسكينة موجودة الآن في مستشفى برودمور للأمراض العقلية... تعاني الجنون التام بالطبع، ولكنها كانت جريمة تم التخطيط لها بذكاء بالغ.

جاءني السيد بيثيريك بعد ذلك وأحضر لي رسالة لطيفة جداً من السيد رودس... رسالة أخجلتني حقاً. ثم قال لي صديقي القديم: أريد معرفة شيء واحد فقط. لماذا رأيتِ أن الآنسة كاروثرز هي الأرجح احتمالاً من السيدة غرانبي؟ فأنت لم تقابلي أياً منهما.

قلت: كان ذلك بسبب حرف الجيم. لقد قلتَ إنها تُسقط

حرف الجيم في كلامها، وهذا يفعله الكثير من الصيادين في الروايات، ولكني لا أعرف أناساً يفعلون ذلك في الحقيقة، وبالتأكيد لا يفعل ذلك أحد تحت الستين من العمر... وقد قلت إن هذه المرأة كانت في الأربعين من عمرها. وقد بدت لي، في إسقاطها ذلك الحرف، وكأنها تلعب دوراً وتبالغ فيه.

لن أقول لكما ما قاله السيد بيثيريك تعليقاً على ذلك، ولكنه امتدحني كثيراً، ولم أملك إلاّ الإحساس بشيء قليل من الزهو بنفسي.

وأمر غريب كيف تأتي النهايات سعيدة في هذه الدنيا! فقد تزوج السيد رودس -مرة أخرى- فتاة لطيفة واعية وأنجبا طفلاً جميلاً، وقد أرسلا لي صورة له في الاحتفال بعيد ميلاده الأول. أليس هذا تصرفاً لطيفاً منهما؟

* * *

دمية الخياطة

كانت الدمية ملقاة على كرسي كبير مغطى بالمخمل. ولم يكن في الغرفة الكثير من الضوء؛ فسماء لندن كانت ملبدة بالغيوم، وقد اجتمعت العتمة الرمادية المخضرّة، والأغطية ذات اللون الأخضر الهادئ، والستائر والسجاد... اجتمعت كلها لينسجم بعضها مع بعض. وقد انسجمت الدمية مع هذا المحيط أيضاً!

كانت ممددة بطولها، مشلولة مفتوحة الذراعين بملابسها المخملية الخضراء وقبعتها المخملية والقناع المرسوم على وجهها. كانت دمية من تلك التي تحث عليها نزوات النساء الثريات؛ لعبة تتدلى بجانب الهاتف أو بين فرش الأرائك، وقد تمددت في شلل أبدي. ومع ذلك كانت حية على نحو غريب! بدت واحدة من السلع الرخيصة للقرن العشرين.

دخلت سايبل فوكس مسرعة تحمل معها نماذج الخياطة، ثم نظرت إلى الدمية بشعور باهت من الدهشة والحيرة. وقد تعجّبت... ولكن موضوع عجبها لم يأخذ مكانه في عقلها الواعي، وبدلاً من ذلك فكرت في نفسها قائلة: "والآن، ما الذي حدث لنموذج المخمل الأزرق؟ أين وضعته؟ أنا متأكدة من أنه كان هنا قبل قليل".

خرجت إلى استراحة الدرج ونادت باتجاه غرفة المشغل:

إلسبيث، إلسبيث، هل نموذج المخمل الأزرق موجود عندك؟ ستصل السيدة فيلوز براون إلى هنا في أية لحظة.

ثم دخلت الغرفة ثانية وأضاءت النور، ونظرت إلى الدمية مرة أخرى وقالت في نفسها: والآن، أين عساني... آه، ها هو.

رفعت نموذج الخياطة من حيث وقع من يدها. ثم سمعت صوت الصرير المعتاد في الخارج حيث توقف المصعد، وبعد قليل دخلت السيدة فيلوز براون بصحبة كلبها إلى الغرفة وهي تلهث وتنفخ كأنها قطار محلي مزعج وصل إلى محطة على جانب الطريق.

قالت: ستمطر المطر سيولاً، سيولاً بكل معنى الكلمة.

خلعت قفازيها ومعطف الفراء الذي كانت تلبسه، فيما دخلت صاحبة المشغل، أليسيا كومب. ولم يكن من عادتها أن تدخل إلّا عندما يصل زبائن مميزون، وقد كانت السيدة فيلوز براون زبونة مميزة.

نزلت إلسبيث، المشرفة على مشغل الخياطة، ومعها الثوب. وألبسته سايبل السيدةَ فيلوز براون قائلةً: ها هو. أعتقد أنه جيد. نعم، لقد نجح بالتأكيد.

استدارت السيدة فيلوز براون يميناً وشمالاً وهي تنظر في المرآة وقالت: أحسب أن الملابس التي تخيطينها تحسِّن مظهري فعلاً من الخلف.

قالت سايبل تطمئنها: أنت أنحف بكثير عمّا كنت قبل ثلاثة أشهر.

– الحقيقة أنني لم أنحف... رغم أنني أبدو هكذا بهذا الثوب. إن في طريقة تفصيله شيئاً مميزاً يقلل من البدانة التي كان يمكن أن أبدو بها في أي ثوب آخر.

قالت أليسيا كومب: ماذا لو رأيت بعضاً من زبائني؟

قامت السيدة فيلوز براون بتجربة الثوب جيئة وذهاباً عدة مرات، ثم التفتت برأسها وقالت فجأة: آه، يا لدميتك هذه! إنها تخيفني. منذ متى تحتفظين بها هنا؟

نظرت سايبل بتردد إلى أليسيا كومب التي بدت متحيرة ومكتئبة على نحو غامض وقالت: لا أعرف بالضبط... أظنني أحضرتها منذ بعض الوقت... لا أستطيع تذكر الأمور أبداً. وهو أمر فظيع هذه الأيام، فأنا –ببساطة– لا أستطيع التذكر. سايبل، منذ متى هي موجودة عندنا؟

قالت سايبل باختصار: لا أعرف.

قالت السيدة فيلوز براون: إنها تخيفني... إنها غريبة! تبدو وكأنها تراقبنا جميعاً، وربما «تضحك منا في سرها». لو كنت مكانك لتخلصت منها.

ارتعدت قليلاً ثم دخلت في تفصيلات خياطة الثوب من جديد: هل تقصر أكمامه قليلاً أم لا؟ وماذا عن طوله؟ وماذا...

وبعدما تمت تسوية كل هذه الأمور بطريقة مرضية استعدت السيدة فيلوز براون للرحيل، وعندما مرّت من جانب الدمية أدارت رأسها ثانية وقالت: كلا، إنني لا أحب هذه الدمية. إنها تبدو وكأنها تنتمي إلى هذا المكان!

سألت سايبل عندما غادرت السيدة فيلوز براون قائلة: ماذا كانت تعني بهذا؟

وقبل أن تتمكن أليسيا كومب من الإجابة عادت فيلوز براون وأطلت برأسها من الباب قائلة: يا إلهي! لقد نسيت الكلب فو لينغ، أين أنت؟ آه، يا لك من كلب!

حدقت... وحدقت معها السيدتان الأخريان أيضاً. كان الكلب مقعياً بجانب الكرسي المخملي الأخضر يحدق إلى أعلى إلى الدمية المترهلة الجاثمة عليه. لم تظهر على وجهه ذي العينين الجاحظتين علامات استمتاع أو استياء، بل كان يكتفي بمجرد النظر.

قالت السيدة فيلوز براون: هيّا يا عزيزي.

ولكن العزيز لم يلقِ لها بالاً.

قالت السيدة فيلوز براون وكأنها تصنّف إحدى الفضائل: إنه يزداد عصياناً يوماً بعد يوم. هيّا يا فو لينغ.

التفت فو لينغ برأسه إلى سيدته التفاتة قصيرة، ثم عاد إلى تأمل الدمية.

قالت السيدة فيلوز براون: لقد تركَتْ لديه انطباعاً معيناً بالتأكيد. لا أظن أنه لاحظ وجودها من قبل... أنا أيضاً لم ألاحظها. هل كانت هنا في آخر مرة جئتُ فيها؟

تبادلت المرأتان النظرات، وقد عبست سايبل فيما قالت أليسيا كومب وهي تجعد جبهتها: لقد أخبرتك... إنني لا أتذكر شيئاً هذه الأيام. منذ متى ونحن نحتفظ بها هنا يا سايبل؟

سألت السيدة فيلوز براون: من أين جاءت؟ هل اشتريتها؟

- آه، لا.

صُدمت أليسيا كومب بهذه الفكرة على نحو ما وعادت لتقول: آه، لا. أظن... أظن أن أحدهم قد أعطانيها.

هزت رأسها وهتفت: أمر يثير الجنون! لا شك أنه يثير الجنون، عندما ينسى المرء كل شيء بعد حدوثه مباشرة.

قالت السيدة فيلوز براون بحدة: لا تكن أحمق يا فو لينغ. هيّا؛ سأضطر إلى رفعك.

رفعته فنبح نباح احتجاج وألم، ثم خرجت من الغرفة والكلب يلتفت بعينيه الصغيرتين إلى الوراء وبانتباه شديد إلى الدمية على الكرسي.

* * *

قالت السيدة غروفز: إن دميتهم هذه تصيبني بالرعب.

كانت السيدة غروفز عاملة التنظيف، وقد أنهت تنظيف الأرضية لتوها، ثم وقفت تنفض الغبار عن الأثاث ببطء. قالت: أمر غريب؛ فأنا لم ألاحظ وجودها حقاً إلاّ بالأمس، ووقتها لم أرها إلاّ أمامي فجأة!

سألتها سايل: ألا تحبينها؟

قالت عاملة التنظيف: قلت لك إنها تخيفني. إنها ليست طبيعية... بهذه السيقان الطويلة المُعلّقة والطريقة التي تستلقي بها هناك والنظرة الماكرة في عينيها... لا يبدو وجودها صحياً برأيي.

– أنت لم تقولي شيئاً عنها من قبل.

– قلت لك إنني لم ألحظ وجودها... حتى صباح هذا اليوم. أعرف أنها موجودة هنا منذ فترة...

سكتت وظهرت على وجهها ملامح الحيرة ثم قالت: "إنها من تلك الأشياء التي يمكن أن تحلمي بها ليلاً". ثم جمعت أدوات التنظيف لتغادر غرفة القياس وتذهبت عبر استراحة الدرج إلى الغرفة المقابلة.

حدقت سايل إلى الدمية المسترخية، وازداد على وجهها تعبير الحيرة والقلق. دخلت أليسيا كومب فالتفتت سايل إليها بحدة وقالت: آنسة كومب، منذ متى وهذه الدمية عندك؟

– ماذا، الدمية؟ يا عزيزتي! تعرفين أنني لا أتذكر الأمور. بالأمس حدث معي أمر سخيف جداً... كنت ذاهبة إلى تلك

المحاضرة، ولم أكن قد اجتزت نصف الطريق في الشارع عندما وجدت فجأة أنني لا أستطيع أن أتذكر إلى أين كنت ذاهبة. فكرت وفكرت، وفي النهاية حدثت نفسي وقلت إنني ذاهبة إلى محلات فورتنامز بلا ريب. كنت أعرف أنني أريد إحضار شيء من فورتنامز. لن تصدقيني إذا قلت لك إنني لم أتذكر أنني كنت ذاهبة إلى المحاضرة إلاّ بعد عودتي إلى البيت وبعد أن تناولت بعض الشاي. كنت أسمع دائماً أن الناس يخرفون عندما يتقدم بهم العمر، ولكن هذا يحدث لي بسرعة فائقة. لقد نسيت الآن أين وضعت حقيبتي اليدوية... ونظارتي أيضاً. أين وضعت تلك النظارة، كانت معي قبل قليل... كنت أقرأ شيئاً في جريدة التايمز.

قالت سايل وهي تناولها النظارة: النظارة هنا على رف الموقد. كيف حصلتِ على هذه الدمية؟ من أعطاك إياها؟

– هذا أيضاً مما لا أذكره. أحسب أن أحدهم أعطانيها أو أرسلها إلي... ولكن يبدو أنها تنسجم مع جو الغرفة تماماً، أليس كذلك؟

– تنسجم أكثر قليلاً مما ينبغي كما أظن. الغريب أنني لا أذكر أنا متى لاحظتُ وجودها أول مرة.

لامتها أليسيا كومب قائلة: هيا، لا تصبحي مثلي! فأنت ما زلت صغيرة السن.

– لكني لا أذكر –حقاً– يا آنسة كومب. أقصد أنني نظرت إليها بالأمس ورأيت أن فيها شيئاً ما. إن السيدة غروفز على حق

تماماً... إن فيها شيئاً مخيفاً. وبعد ذلك خُيِّل إليّ أنني فكرت بهذا من قبل، ثم حاولت أن أتذكر متى فكرت بهذا أول مرة ولكن لم أستطع أن أتذكر شيئاً! بدا الأمر -على نحو ما- وكأنني لم أرها من قبل أبداً! لم تكن تُشعرني بمثل هذا الشعور من قبل. إنها تشعرني وكأنها كانت هنا منذ مدة طويلة... ولكني لم ألحظها إلاّ مؤخراً.

– ربما جاءت ذات يوم تطير على عصا مكنسة ودخلت من النافذة. إنها تنتمي تماماً إلى هذا المكان الآن على أية حال.

نظرت حولها وقالت: لا تكادين تستطيعين تخيل الغرفة من دونها، أليس كذلك؟

قالت سايبل وهي ترتعد قليلاً: نعم، ولكني أتمنى لو أنني أستطيع ذلك.

– تستطيعين ماذا؟

– تخيل الغرفة دونها.

سألتها أليسيا كومب بنفاد صبر: هل سنُجنّ جميعاً من هذه الدمية؟ ما الخطأ في هذه المسكينة؟ تبدو لي كرأس ملفوف عفن، ولكن ربما كان ذلك لأنني لا أضع النظارة.

وضعت النظارة فوق أنفها ونظرت إلى الدمية بإمعان ثم قالت: نعم؛ فهمت ما تقصدينه. إنها تخيف قليلاً بالفعل. تبدو حزينة ولكن... تبدو ماكرة وحازمة أيضاً.

– من الغريب أن تكرهها السيدة فيلوز براون كل هذه الكراهية.

– إنها لا تجد حرجاً في قول ما بداخلها.

أصرت سايبل: ولكن من الغريب أن تترك هذه الدميةُ مثلَ هذا الانطباع عندها.

– الناس يكرهون فجأة أحياناً.

قالت سايبل بضحكة خافتة: ربما لم تكن هذه الدمية هنا حتى الأمس. ربما... ربما طارت ودخلت من النافذة -كما تقولين- واستقرت في هذا المكان!

– لا؛ أنا واثقة من أنها كانت هنا منذ مدة. ربما لم تغدُ مرئية إلاّ بالأمس.

– هذا ما أشعر به أيضاً، وهو أنها كانت موجودة هنا منذ مدة... ومع ذلك لا أتذكر أنني رأيتها حتى الأمس.

قالت أليسيا كومب بسرعة: أرجوك أن تتوقفي عن ذلك يا عزيزتي! إنك تجعلينني أشعر شعوراً غريباً والارتعاشة تسري في عظامي. هل تريدين نسج الأساطير الخرافية عن هذه الدمية؟

رفعت اللعبة وهزتها وعدّلت كتفيها مرة أخرى وأجلستها على كرسي آخر، وعلى الفور انحذرت الدمية قليلاً وارتخت.

قالت أليسيا كومب وهي تحدق إليها: ليس فيها أي حياة.

ومع ذلك فإنها تبدو حيّة على نحو غريب، أليس كذلك؟

* * *

قالت السيدة غروفز وهي تتنقل في غرفة العرض وتنفض الغبار: لقد اخافتني كثيراً بالفعل... أخافتني خوفاً لا أكاد أحب دخول غرفة القياس بعده.

سألتها الآنسة كومب التي كانت تجلس وراء طاولة في الزاوية مشغولةً بحسابات مختلفة: "ما الذي أخافك؟"، ثم أضافت تخاطب نفسها أكثر من مخاطبتها السيدة غروفز: هذه المرأة تظن أنها تستطيع خياطة ثوبَي سهرة وثلاثة أثواب حفلات كل سنة دون أن تدفع لي بنساً واحداً مقابل خياطتها! بعض الناس أمرهم غريب.

قالت السيدة غروفز: إنها هذه الدمية.

- ماذا؟ دميتنا مرة أخرى؟

- نعم؛ لقد تجلس خلف المكتب منتصبة كالإنسان. آه، لقد أفزعتني فعلاً.

- ما الذي تتحدثين عنه؟

نهضت أليسيا كومب وعبرت الغرفة ثم خرجت منها إلى استراحة الدرج ثم إلى الغرفة المقابلة... غرفة القياس. كان فيها مكتب صغير في إحدى الزوايا وهناك كانت الدمية تجلس على

كرسي أُلصق بالمكتب ويداها الطويلتان مرتخيتان فوق الطاولة.

قالت أليسيا كومب: يبدو أن أحدهم كان يلهو وأعجبه أن يُجلِسها على هذا النحو. إنها تبدو طبيعية تماماً.

نزلت سايبل فوكس الدرج في هذه اللحظة تحمل ثوباً لتجربّه صاحبته ذلك الصباح.

- تعالي هنا يا سايبل... انظري إلى دميتنا كيف تجلس وراء مكتبي الخاص وتكتب الرسائل الآن.

نظرت المرأتان إليها، وقالت أليسيا كومب: هذا سخيف جداً! ترى من الذي أسندها هناك؟ أنتِ؟

- لا. لا بد من أنها واحدة من فتيات الطابق العلوي.

قالت أليسيا كومب: "إنها مزحة سخيفة حقاً"، ثم رفعت الدمية عن المكتب وألقتها على الأريكة.

وضعت سايبل الثوب على أحد الكراسي بحرص، ثم خرجت من الغرفة وصعدت إلى مشغل الخياطة في الطابق العلوي وقالت: هل تعرفنَ الدمية... الدمية المخملية الموجودة في غرفة الآنسة كومب في الطابق الأرضي... في غرفة القياس؟

رفعت المشرفة على المشغل ومعها ثلاث فتيات أبصارهن وقالت إحداهن: نعم يا آنسة، نعرفها بالطبع.

- من التي أجلستها وراء المكتب هذا الصباح لتلهو؟

نظرت الفتيات الثلاث إليها، ثم قالت إلسبيث المشرفة: أجلستها وراء المكتب؟ أنا لم أفعل ذلك.

قالت واحدة من الفتيات: ولا أنا. هل أجلستِها أنت يا مارلين؟

هزت مارلين رأسها بالنفي.

- تبدو هذه واحدة من مزحاتك يا إلسبيث؟

قالت إلسبيث (وكانت امرأة صارمة تبدو وكأن فمها مملوء بالدبابيس دوماً): لديّ من العمل ما يشغلني عن اللعب بالدمى وإجلاسها وراء المكاتب.

قالت سايبل: اسمعيني...

ولدهشتها اهتز صوتها قليلاً وأضافت: كانت... كانت مزحة جيدة، ولكني أود فقط معرفة من فعل ذلك.

اغتاظت الفتيات الثلاث وقالت إحداهن: لقد قلنا لك يا سيدة فوكس. لم تفعل ذلك أي منّا، أليس كذلك يا مارلين؟

قالت مارلين: أنا لم أفعل، وإذا كانت نيلي ومارغريت قد قالتا إنهما لم تفعلا، فإن أياً منّا لم تفعلها إذن.

قالت إلسبيث: لقد سمعتِ ما قلتُه. ما سبب كل هذا الكلام يا سيدة فوكس؟

قالت مارلين: ربما كانت السيدة غروفز؟

هزت سايبل رأسها بالنفي وقالت: لا يمكن أن تكون السيدة غروفز؛ فهي قد خافت منها تماماً.

قالت إلسبيث: سأنزل وأرى بنفسي.

قالت سايبل: "إنها ليست هناك الآن؛ فقد أخذتْها الآنسة كومب من وراء الطاولة وألقتها على الأريكة". وسكتت ثم أكملت: ما أقصده هو أن شخصاً قد حشرها -دون شك- على كرسي وراء المكتب هناك ظانّاً أن في ذلك تسلية. أظن ذلك. وإنني... لا أفهم لماذا لا يعترف هذا الشخص بذلك.

قالت مارغريت: قلت لك مرتين يا سيدة فوكس. لا أفهم لماذا تواصلين اتهامنا بالكذب؛ فليس من شأن واحدة منّا أن تفعل شيئاً سخيفاً كهذا.

قالت سايبل: آسفة، فأنا لم أقصد إزعاجكن. ولكن... ولكن مَن غيركن يمكن أن يفعل ذلك؟

قالت مارلين وهي تقهقه: ربما هي نهضت وسارت إلى هناك بنفسها.

ولسبب ما لم يرُقْ هذا الاقتراح لسايبل، فقالت: آه، الأمر كله هراء على أية حال.

ثم نزلت الدرج ثانية.

كانت أليسيا كومب تدندن مبتهجة. نظرت حول الغرفة وقالت: فقدتُ نظارتي ثانية، ولكن لا يهم. لا أريد رؤية شيء الآن. المشكلة -بالطبع- عندما يكون الواحد ضعيف البصر مثلي ويفقد نظارته فإنه لا يستطيع العثور عليها إلاّ إذا كانت لديه نظارة أخرى يبحث بها عن المفقودة!

قالت سايل: سأبحث عنها بدلاً منك. كنتِ تلبسينها قبل قليل.

- ذهبتُ إلى الغرفة الأخرى عندما صعدتِ أنت إلى أعلى، وأظن أنني أخذتُها إلى هناك.

ذهبت أليسيا كومب إلى الغرفة الأخرى قائلة: أمر مزعج. أريد مواصلة تدقيق هذه الحسابات، ولكن كيف أفعل ذلك إن لم تكن نظارتي معي؟

قالت سايل: سأصعد وأحضر لك نظارتك الأخرى من غرفة النوم.

- ليست عندي نظارة أخرى في الوقت الحالي.

- لماذا؟ ما الذي حدث لها؟

- أظن أنني تركتها أمس عندما تناولت الغداء في الخارج. وقد اتصلت بالمطعم هاتفياً، كما اتصلت بمحلين دخلتهما أيضاً.

- آه، يا عزيزتي، أظن أنك ستضطرين لشراء ثلاث نظارات!

- لو كان عندي ثلاث نظارات فسوف أقضي حياتي بحثاً عن هذه أو تلك. أظن أن من الأفضل وجود نظارة واحدة فقط؛ فعندها سأضطر للبحث عنها حتى أجدها.

- لا بد من أن تكون موجودة في مكان ما. أنت لم تخرجي من هاتين الغرفتين. إنها ليست هنا بالتأكيد، إذن أنت وضعتِها في غرفة القياس بالتأكيد.

عادت إلى هناك تسير وتنظر حولها عن كتب، وأخيراً خطرت لها فكرة فرفعت الدمية عن الأريكة وصاحت: لقد وجدتها.

- آه، أين كانت يا سايل؟

- تحت دميتنا الغالية. أظن أنك ألقيتِها هناك عندما أعدتِ الدمية إلى الأريكة.

- لم أفعل ذلك... أنا واثقة من أنني لم أفعل.

قالت سايل بغيظ: آه، أظن أن الدمية أخذتها وخبأتها عنك إذن!

قالت أليسيا وهي تنظر إلى الدمية متأملة: أتدرين -حقاً- أنني ما كنت لأستغرب ذلك منها. إنها تبدو ذكية جداً، ألا ترين ذلك يا سيبيل؟

- لا أظن أنني أحب وجهها. يبدو وكأنها تعرف شيئاً لا نعرفه.

قالت أليسيا مدافعة (ولكن دون قناعة): ألا تظنين أنها تبدو كما لو كانت حزينة وعذبة؟

– لا أظنها عذبة على الإطلاق.

– نعم، ربما كنتِ على حق. حسناً، هيّا نواصل عملنا؛ ستصل السيدة لي إلى هنا بعد عشر دقائق، وأريد إنهاء هذه الفواتير وإرسالها بالبريد.

* * *

– سيدة فوكس... سيدة فوكس!

قالت سايبل: نعم يا مارغريت؟ ما الأمر؟

كانت سايبل منكبة على إحدى الطاولات تقص قطعة من قماش الساتان.

– آه، إنها تلك الدمية مرة أخرى يا سيدة فوكس. أنزلتُ الثوب البني كما طلبتِ مني فرأيت تلك الدمية تجلس منتصبة وراء المكتب ثانية. ولم يكن الفاعل أنا... ولا أي واحدة منّا. أرجوك يا سيدة فوكس، ما كان لنا أن نقوم بمثل هذا الأمر.

انزلق مقص سايبل قليلاً على القماش فقالت غاضبة: انظري ماذا جعلتِني أفعل... ولكن أظن أن الأمر سيكون على ما يرام. والآن، ما هذا الذي تقولينه عن الدمية؟

– إنها تجلس وراء المكتب ثانية!

نزلت سايبل ودخلت غرفة القياس.

كانت الدمية تجلس وراء المكتب كما كانت تجلس من قبل تماماً. وقالت سايبل تخاطبها: إنك شديدة التصميم، أليس كذلك؟

رفعتها بفظاظة وأعادتها إلى الأريكة قائلة: هذا هو مكانك يا عزيزتي! ابقي هنا.

عبرت إلى الغرفة الأخرى ونادت: آنسة كومب!

– نعم يا سايبل؟

– أحدهم يلعب معنا لعبة بالفعل. كانت تلك الدمية تجلس وراء المكتب ثانية.

– من تظنينه يكون؟

– لا بد من أنها واحدة من الفتيات الثلاث في الطابق العلوي. أظنها ترى في هذا تسلية... ولكنهن يقسمن جميعاً بأنهن لم يفعلن ذلك.

– من تظنينها تكون... مارغريت؟

– لا، لا أظنها مارغريت؛ لقد بدت غريبة الأطوار عندما جاءت وأخبرتني. أظنها تلك التي تقهقه دوماً، مارلين.

– إنه تصرف سخيف جداً في كل الأحوال.

- إنه كذلك بالطبع... تصرف بُلَهاء.

ثم أضافت عابسة: ومع ذلك فسوف أضع له حداً.

- ما الذي ستفعلينه؟

- سترين.

في تلك الليلة، عندما غادرت، أغلقت باب غرفة القياس من الخارج بالمفتاح وقالت: إنني أغلق هذا الباب وسآخذ المفتاح معي.

قالت أليسيا بقليل من الاستمتاع: آه، فهمت. لقد بدأتِ تظنين أنني أنا التي أفعل هذا، أليس كذلك؟ تحسبين أنني شاردةَ الذهن بحيث أدخل هناك وأفكر في الكتابة على المكتب، ولكن بدلاً من ذلك أحضر الدمية وأضعها هناك لتكتب نيابة عني. أهذا ما ترينه؟ ثم أنسى أنني عملت ذلك؟

اعترفت سايبل: هذا ممكن. على أية حال فسوف أتأكد تماماً من عدم حدوث مزحة سخيفة هذه الليلة.

* * *

كان أول شيء عملته سايبل -عندما وصلت متجهمة في صباح اليوم التالي- هو فتح باب غرفة القياس والدخول إليها. كانت السيدة غروفز تنتظر على استراحة الدرج حاملة ممسحة ومنفضة غبار وملامح الحزن على وجهها.

قالت سايبل: "سنرى الآن!"، ثم عادت إلى الوراء مُطلِقة شهقة خافتة.

كانت الدمية جالسة وراء المكتب!

قالت السيدة غروفز من ورائها: يا إلهي! هذا أمر خارق! آه، تبدين شاحبة يا سيدة فوكس، وكأن شيئاً أصابك.

قالت سايبل: إنني على ما يرام.

سارت نحو الدمية ورفعتها بحذر وعبرت الغرفة وهي تحملها.

قالت السيدة غروفز: أحدهم يمزح معك مرة أخرى.

- لا أفهم كيف استطاع أن يعمل ذلك هذه المرة! لقد أقفلت ذلك الباب الليلة الماضية، وتعرفين أن أحداً لا يمكنه الدخول.

- ربما كان لدى أحدهم مفتاح آخر.

- لا أظن هذا؛ فنحن لم نهتم أبداً بإقفال هذا الباب من قبل. إنه قفل من ذلك النوع القديم، ولا يوجد له سوى هذا المفتاح.

- ربما انطبق عليه المفتاح الآخر... مفتاح الباب المقابل.

بعد وقت قصير جرّبتا كل المفاتيح الموجودة في المحل، ولكن أياً منها لم يفتح باب غرفة القياس.

قالت سايبل بعد ذلك عندما كانت تتناول الغداء مع أليسيا: إنه أمر غريب يا آنسة كومب.

بدت أليسيا كومب مسرورة بعض الشيء وقالت: أظن أن هذا -ببساطة- أمر خارق يا عزيزتي. أظن أن علينا الكتابة إلى أولئك الذين يقومون بأبحاث الخوارق بخصوص هذا الأمر؛ فربما أرسلوا محققاً ليرى إن كان في الغرفة أي شيء غريب.

- يبدو أنك غير مهتمة أبداً.

- إنني أستمتع بذلك بطريقة ما. أقصد أن من الممتع، في مثل عمري، أن تحدث أشياء كهذه! ومع ذلك... لا! لا أظنني أحب هذا الأمر تماماً. أقصد أن تلك الدمية قد صارت مغرورة قليلاً، أليس كذلك؟

في تلك الليلة أقفلت سايبل وأليسيا الباب من الخارج مرة أخرى، وقالت سايبل: ما زلت أرى أن أحدهم ربما كان يمزح معنا، رغم أنني لا أفهم لذلك سبباً.

سألتها أليسيا: أتظنين أنها ستكون وراء الطاولة مرة أخرى صباح الغد؟

- نعم؛ أظن ذلك.

* * *

لكنهما كانتا مخطئتين. لم تكن الدمية وراء المكتب، بل كانت على عتبة الشبّاك ساكنة تنظر إلى الشارع. ومرة أخرى

بدت في جلستها طبيعيةً بصورة غريبة.

قالت أليسيا كومب بينما كانتا تتناولان فنجاناً من القهوة عصر ذلك اليوم: إنه أمر سخيف جداً.

كانتا قد اتفقتا على عدم تناول الشاي في غرفة القياس كما هي عادتهما، ولكن في غرفة أليسيا الخاصة مقابلها.

- سخيف بأي معنى؟

- أقصد عدم وجود شيء يمكنك الإمساك به... مجرد دمية تكون دائماً في مكان مختلف.

* * *

ومع مرور الأيام أصبحت الظاهرة جديرة بالاهتمام؛ إذ لم تكن الدمية تغير مكانها الآن أثناء الليل فقط، بل أصبحت تنتقل في أي وقت، فعندما يدخلن غرفة القياس (حتى بعد أن يغبن بضع دقائق فقط عنها) فإنهن يجدن الدمية في مكان مختلف. كنّ يتركنَها على الأريكة ثم يجدنَها فوق أحد الكراسي، ثم تكون فوق كرسي آخر... وأحياناً تكون على عتبة النافذة، وأحياناً أخرى وراء المكتب من جديد.

- إنها تنتقل من مكان لآخر كما تشاء. وأظن يا سايبل، أظن أنها مسرورة بذلك.

وقفت المرأتان تنظران إلى الدمية المترهلة بلباسها المخملي

الناعم ووجهها الحريري المصبوغ، ثم قالت أليسيا: إنها لا تعدو أن تكون مجموعة قطع مخملية وحريرية قديمة وبعض الصبغ... لا تعدو ذلك.

بدا صوتها متوتراً، وأضافت: أظن أن بإمكاننا... بإمكاننا التخلص منها.

سألتها سايبل وقد كاد صوتها يبدو مصدوماً: ماذا تقصدين بالتخلص منها؟

- يمكننا إلقاؤها في النار، أعني نحرقها مثل ساحرة... أو يمكننا وضعها في سلة المهملات بالطبع.

- لا أظن أن هذا سيفيد. ربما أخذها أحدهم من سلة المهملات وأعادها إلينا.

- أو نستطيع إرسالها إلى مكان ما. إلى واحدة من تلك الجمعيات التي تكتب دائماً وتطلب تبرعات عينية... لبيعها في المزادات الخيرية. أظن هذه أفضل فكرة.

- لا أعرف. إنني أكاد أخاف من القيام بذلك!

- تخافين؟

- أظن أنها ستعود.

- تقصدين أنها ستعود إلى هنا؟

- نعم.

- مثل حمامة زاجلة؟

- نعم، هذا ما أعنيه.

- لا أحسبنا نفقد عقولنا، أليس كذلك؟ ربما أصبحتُ أنا خَرِفة وربما أخذتِ تسخرين مني، هل هذا صحيح؟

قالت سايبل: لا، ولكنْ لديّ شعور مخيف جداً... شعور مرعب بأنها أقوى منّا.

- ماذا؟ قطع القماش هذه؟

- نعم، قطع القماش الشلاّء المخيفة هذه. لأنها شديدة العزم.

- شديدة العزم؟

- نعم، عازمة على فعل ما تريده! أعني أن هذه قد صارت غرفتها الآن!

قالت أليسيا كومب وهي تنظر حولها: نعم، إنها غرفتها، أليس كذلك؟ وإذا ما فكرت بالأمر وبالألوان وغير ذلك لرأيتِ أنها كانت دوماً غرفتها بالطبع... ظننتها تنسجم مع الغرفة، ولكن الحقيقة أن الغرفة هي التي تناسبها.

ثم أضافت الخيّاطة بشيء من السرعة والحزم في صوتها: من السخف أن تأتي دمية وتستحوذ على الأشياء بهذه الطريقة. أتعلمين أن السيدة غروفز لن تدخل هنا لتنظيف الغرفة بعد اليوم.

– هل قالت إنها تخاف من الدمية؟

– لا. إنها تتعذر بأمور مختلفة. ما الذي سنفعله يا سايبل؟ إن هذا الأمر يحبطني، ولم أستطع تفصيل شيء منذ عدة أسابيع.

اعترفت سايبل: وأنا لا أستطيع التركيز على قص القماش بطريقة صحيحة وأقعُ في جميع الأخطاء السخيفة. ربما حققت فكرتك في الكتابة إلى أولئك الذين يبحثون في الأمور الخارقة بعض الفائدة.

– إنها تجعلنا نبدو غبيتين. لم أقصد هذا حقيقة. كلا، أظن أن علينا الاستمرار لحين...

– لحين ماذا؟

قالت أليسيا: "آه، لا أعرف"، ثم ضحكت ضحكة غامضة.

* * *

عندما وصلت سايبل، في اليوم التالي، وجدت باب غرفة القياس مقفلاً بالمفتاح.

– آنسة كومب، هل لديك المفتاح؟ هل أقفلتِ هذا الباب الليلة الماضية؟

قالت أليسيا كومب: نعم، لقد أقفلته وسيبقى مقفلاً.

– ماذا تقصدين؟

– أعني أنني تخليت عن الغرفة؛ يمكن للدمية أن تأخذها. إننا لا نحتاج إلى غرفتين ويمكننا تكييف أنفسنا هنا.

– ولكنها غرفة جلوسك الخاصة.

– لا أريدها بعد الآن. عندي غرفة نوم جميلة وأستطيع استخدامها غرفةَ نوم وجلوس معاً.

قالت سايبل غيرَ مصدقة: أتقصدين أنك لن تدخلي تلك الغرفة بعد الآن؟

– هذا ما أعنيه بالضبط.

– ولكن... ماذا عن تنظيف الغرفة؟ ستكون في حالة سيئة.

– اتركيها! إن كانت هذه الغرفة تعاني من استحواذ دمية عليها، فلا بأس... دعيها تستحوذ عليها وتنظف الغرفة بنفسها. إنها تكرهنا.

– ماذا تقصدين؟ الدمية تكرهنا؟

– نعم، ألم تعرفي هذا؟ لا بد من أنك قد عرفت. أظنك أدركتِ هذا عندما نظرتِ إليها.

– نعم. أظنني أدركت ذلك. أعتقد أنني أحسستُ بهذا الإحساس منذ البداية... إحساس بأنها تكرهنا وتريدنا أن نخرج من هنا.

- إنها خبيثة. على أية حال، لا بد من أن تكون راضية الآن.

* * *

سارت الأمور بعد ذلك بهدوء. أخبرت أليسيا كومب عاملاتها أنها قد تخلت عن استخدام غرفة القياس في الوقت الحالي... وبررت ذلك بأن استخدامها يزيد من عدد الغرف التي تحتاج للتنظيف.

ولكن ما أزعجها أنها سمعت إحدى الفتيات العاملات تقول لصاحبتها مساء ذلك اليوم نفسه: لقد غدت الآنسة كومب معتوهة فعلاً. كنت أرى دائماً أنها غريبة الأطوار قليلاً... بطريقتها تلك في فقدان أشياء ونسيان أشياء. ولكن الأمور بلغت مداها الآن، أليس كذلك؟ لديها شيء ما تجاه تلك الدمية.

قالت الأخرى: آه، أتعتقدين -حقاً- أنها تصاب بالجنون أو أنها يمكن أن تطعننا بسكين مثلاً؟

عبرتا وهما تتهامسان وانتصبت أليسيا على كرسيها ساخطة وقالت: "أنا أصاب بالجنون؟!". ثم أضافت تخاطب نفسها بحزن: أحسب أنه كان من شأني أن أظن نفسي مجنونة لولا سايبل. أما أن نحس أنا وسايبل والسيدة غروفز أيضاً بغرابة الأمر، فهذا يعني أن في الأمر شيئاً بالفعل. ولكن ما لا أفهمه هو كيف سينتهي هذا الأمر؟

* * *

بعد ثلاثة أسابيع قالت سايبل لأليسيا كومب: يجب أن ندخل تلك الغرفة أحياناً.

- لماذا؟

- لا بد من أنها الآن في حالة يرثى لها... سيَبْلَى الأثاث فيها من العث. يجب أن ننظفها ونكنسها ثم نقفلها ثانية.

- أفضّل أن تبقى مغلقة وألاّ نعود إليها ثانية.

- إنك تؤمنين بالخرافات أكثر مني.

- أظن ذلك. كنت أكثر استعداداً منك للاعتقاد بكل هذا، ولكنني وجدت الأمر مثيراً بطريقة غريبة في البداية. لا أعرف. إنني خائفة وأفضّل عدم دخول تلك الغرفة ثانية.

- أمّا أنا فأفضّل دخولها، وسوف أدخلها.

- أتعرفين ما هي مشكلتك؟ إنك فضولية فقط.

- حسناً إذن، إنني فضولية. أريد أن أرى ما فعلته الدمية.

- ما زلت أرى أن من الأفضل تركها وشأنها. لقد خرجنا من تلك الغرفة، ولذلك فهي الآن راضية. من الأفضل أن تتركيها راضية.

زفرت بغيظ ثم قالت: يا لهذا السخف الذي نخوض فيه!

- نعم؛ أعرف أننا نتكلم سخفاً، ولكن هل لك أن تعطيني

طريقة لتفادي هذا السخف... هيّا، أعطيني المفتاح.

– حسناً، حسناً.

– أعتقد أنك خائفة من أن أخرجها من الغرفة. أظنها من ذلك النوع الذي لا تحدّه الأبواب والنوافذ.

فتحت سايبل الباب ودخلت ثم قالت: كم هو غريب!

قالت أليسيا وهي تختلس النظرات من وراء سايبل: ما هو الغريب؟

– لا تكاد الغرفة تبدو مغبرّة أبداً، أليس كذلك؟ لقد تخيل المرء بعد مرور كل هذه المدة على إغلاقها...

– نعم؛ هذا غريب.

– ها هي ذي هناك.

كانت الدمية على الأريكة. لم تكن ممددة على وضعها المترهل المعتاد، بل كانت تجلس منتصبة ووراء ظهرها مسند. وبدت وكأنها سيدة البيت التي تنتظر ضيوفاً.

قالت أليسيا كومب: حسناً، إنها تبدو وكأنها في بيتها تماماً، أليس كذلك؟ أكاد أشعر أن عليّ الاعتذار لها عن دخولي.

قالت سايبل: هيا نذهب.

عادت أدراجها، ثم أغلقت الباب وأقفلته مرة أخرى.

تبادلت المرأتان النظرات، ثم قالت أليسيا كومب: ليتني أعرف لماذا نخاف منها هكذا!

– يا إلهي! ومَنْذا لا يخاف؟

– أقصد ما الذي يحدث في نهاية الأمر؟ لاشيء في الواقع... مجرد دمية تتنقل داخل الغرفة.

– هل أنت متأكدة من أنك لا تعرفين من أين جاءت؟

– إنني لا أعرف شيئاً. وكلما فكرت في الأمر أكثر كلما ازدادت قناعتي بأنني لم أشترِها وأن أحداً لم يُعطِني إياها. أعتقد أنها... أنها جاءت وحسب!

– هل تعتقدين أنها... ستذهب؟

– لا أرى سبباً لذلك؛ فقد حصلت على كل ما تريد.

* * *

ولكن بدا أن الدمية لم تحصل على كل ما كانت تريده.

ففي اليوم التالي شهقت سايبل شهقة مفاجئة عندما دخلت غرفة العرض، ثم صاحت باتجاه الطابق العلوي: آنسة كومب، آنسة كومب... انزلي هنا!

– ما الأمر؟

نزلت أليسيا كومب (وكانت قد استيقظت من نومها متأخرة)

وهي تعرج قليلاً بسبب آلام الروماتيزم في ركبتها اليمنى.

– ماذا أصابك يا سايل؟

– انظري... انظري ما حدث الآن.

وقفتا عند مدخل باب غرفة العرض، وكانت الدمية هناك جالسة تتكئ على ذراع كرسي.

قالت سايل: لقد خرجت... خرجت من تلك الغرفة! إنها تريد هذه الغرفة أيضاً.

جلست أليسيا قرب الباب وقالت: أظن أنها ستأخذ محلنا كله في النهاية.

– ربما.

قالت أليسيا تخاطب الدمية: أيتها الشريرة القذرة الخبيثة! لماذا تأتين وتزعجيننا هكذا؟ لا نريدك هنا.

بدا لها، ولسايل أيضاً، أن الدمية قد تحركت قليلاً! بدا وكأن أطرافها ازدادت ارتخاء. كانت تمد ذراعها الطويل الرخو على ذراع الكرسي وبدا الوجه شبه المختبئ وكأنه يُطلّ من تحت الذراع، وكانت نظرة خبيثة ماكرة.

قالت أليسيا: إنها مرعبة. لا أستطيع تحمل هذا... لم أعد أتحمّل هذا!

وفجأة أذهلَتْ سايل تماماً عندما اندفعت داخل الغرفة ورفعت الدمية وذهبت إلى النافذة ففتحتها وألقت بالدمية إلى الشارع.

صدرت عن سايل شهقةٌ وصرخةُ خوف مكتومة وقالت: آه، أليسيا، ما كان عليك أن تفعلي ذلك! إنني واثقة من هذا!

– كان عليّ أن أفعل شيئاً... لم أعد أتحملها.

جاءت سايل إليها عند النافذة ونظرت. كانت الدمية ملقاة على الرصيف مسترخية الأطراف ووجهها إلى أسفل.

قالت سايل: لقد قتلتِها!

– لا تكوني سخيفة. كيف أقتل شيئاً مصنوعاً من الحرير والمخمل، قطعاً ممزقة؟ إنها ليست حقيقية.

– بل هي حقيقية إلى حدٍّ مخيف.

أمسكت أليسيا أنفاسها وقالت: يا إلهي! تلك الطفلة...

كانت فتاة صغيرة رثة الثياب تقف هناك فوق الدمية على الرصيف. نظرت إلى الشارع من كلا طرفيه... شارع لم يكن مزدحماً في هذه الساعة من الصباح رغم وجود بعض السيارات، ثم انحنت مسرورة، فأخذت الدمية، وركضت عبر الشارع.

صاحت أليسيا: "قفي، قفي!"، ثم التفتت إلى سايل وقالت:

يجب ألاّ تأخذ تلك الطفلة الدمية. يجب ألاّ تأخذها! هذه الدمية خطيرة... إنها شريرة. يجب أن تمنعها.

لم تكونا هما اللتان أوقفتاها، وإنما حركة المرور؛ ففي تلك اللحظة كانت ثلاث سيارات أجرة قادمة من اتجاهٍ وعربتا بيع من الاتجاه الآخر؛ فحُصرت الطفلة في جزيرة في وسط الطريق. نزلت سايبل الدرج مسرعة وتبعتها أليسيا، ووصلتا وهما تحاولان تفادي العربتين وإحدى السيارات الخاصة إلى الجزيرة قبل أن تتمكن الطفلة من قطع الشارع إلى الجانب المقابل.

قالت أليسيا: لا يمكنك أخذ هذه الدمية. أعيديها إليّ.

نظرت الطفلة إليها. كانت فتاة صغيرة نحيلة في الثامنة من عمرها تقريباً في عينيها بعض الحول، وكان في وجهها ما يدل على التحدي.

قالت: لماذا أعطيك إياها؟ لقد ألقيتِها من النافذة. رأيتك تفعلين ذلك. وإذا كنتِ قد رميتِها من النافذة فهذا يعني أنك لا تريدينها؛ ولذلك فهي ملكي الآن.

قالت أليسيا مهتاجة: سأشتري لك دمية غيرها. سنذهب إلى محل ألعاب في أي مكان تشائين وسأشتري لك أفضل دمية نجدها، ولكن أعيدي لي هذه الدمية.

– لن أعطيك إياها.

أمسكت الدمية المخملية بقوة.

قالت سايبل: يجب أن تعيديها لنا؛ إنها ليست لك.

مدّت يدها لتأخذ الدمية من الطفلة، وفي تلك اللحظة ضربت الطفلةُ الأرضَ بقدمها والتفتت وصرخت في وجههما: لن أفعل، لن أفعل، لن أفعل! إنها لي... أحبها. أنت لا تحبينها، أنت تكرهينها. لو لم تكرهيها لما ألقيتِها خارج النافذة. قلتُ لك إنني أحبها وهذا ما تريده. تريد أن تكون محبوبة.

بعد ذلك انسلّت الفتاة بين السيارات وعبرت الشارع ركضاً ثم دخلت أحد الأزقة وغابت عن الأنظار قبل أن تتمكن السيدتان المسنتان من تقرير مسألة اللحاق بها بين السيارات.

قالت أليسيا: لقد ذهبت.

– قالت إن الدمية تريد أن تكون محبوبة.

– ربما، ربما هذا ما كانت تريده منذ البداية؛ أن تكون محبوبة!

ثم وقفت المرأتان تتبادلان نظرات خائفة وسط حركة المرور في لندن.

* * *

جريمة في المرآة

لا أملك تفسيراً لهذه القصة، وليست لديّ نظريات عن أسبابها وظروفها. إنها مجرد شيء... حدث.

ومع ذلك أتساءلُ -أحياناً- كيف كانت الأمور ستجري لو أنني لاحظت في ذلك الوقت تلك الجزئية الجوهرية الواحدة فقط، التي لم أقدِر قيمتها أبداً إلاّ بعد سنوات عديدة. ولو كنت لاحظتها فأظن أن حياة ثلاثة أشخاص كانت ستتغير كلياً. وهذه فكرة مخيفة جداً إلى حد ما.

من أجل البدء بالقصة عليّ أن أعود إلى صيف عام ١٩١٤، قبل اندلاع الحرب تماماً، عندما ذهبت إلى باغويرثي مع نيل كارسليك.

أظن أن نيل كان أفضل صديق لي تقريباً. وكنت أعرف أخاه ألان أيضاً، ولكن ليس معرفة جيدة. أمّا شقيقتهما سيلفيا فلم ألتقِ بها أبداً. كانت أصغر من ألان بسنتين ومن نيل بثلاث سنوات. وحين كنّا في المدرسة معاً قررنا مرتين أن أقضي جزءاً من العطل المدرسية مع نيل في باغويرثي، وفي المرتين حدث طارئ منع ذلك. ولذلك كنت في الثالثة والعشرين عندما رأيت بيت نيل وألان لأول مرة.

كنّا مجموعة كبيرة هناك. وكانت سيلفيا، شقيقة نيل، قد خُطبت لشاب يدعى تشارلز كراولي. كان أكبر منها بكثير كما قال نيل، ولكنه محترم جداً وغني إلى حدٍّ ما.

أذكرُ أننا وصلنا في الساعة السابعة مساء تقريباً. كان كل واحد قد ذهب إلى غرفته ليغير ملابسه ويستعد للعشاء، فأخذني نيل إلى غرفتي.

كان «باغوبرثي» بيتاً قديماً جذاباً ينقصه الترتيب السليم؛ فقد حقق ساكنوه رغبتهم في إضافة المزيد من البناء إليه خلال القرون الثلاثة الأخيرة، وكان مليئاً بالأدراج الصغيرة صعوداً ونزولاً وبشكل غير متوقع. كان من تلك البيوت التي يصعب على المرء أن يجد طريقه فيها، وأذكر أن نيل وعدني بأن يعود ويأخذني وهو في طريقه إلى العشاء. لقد كنت أشعر بشيء من الخجل من الالتقاء بأهله لأول مرة، وأتذكر أنني قلت ضاحكاً إنه بيت يتوقع فيه المرء الالتقاء بأشباح في الممرات، وقال -بلا اكتراث- إنه يظن أن البيت مسكون بالأشباح كما قيل، ولكن أحداً منهم لم يرَ أي شيء، كما أنه لم يكن يعرف الشكل الذي يُفترَض أن يتخذه الشبح.

ثم خرج مسرعاً وبدأت أبحث في حقيبتي عن ملابس أرتديها على العشاء. وقد كنت أقوم بربط ربطة العنق وأنا أقف أمام المرآة وأرى وجهي وكتفي، وأرى ورائي جدار الغرفة... حائطاً عادياً في وسطه باب. وعندما انتهيت -أخيراً- من تسوية ربطة العنق لاحظت أن الباب قد بدأ يُفتَح.

لا أعرف لماذا لم ألتفت... أظن أن ذلك كان هو ردّ الفعل الطبيعي، ولكني لم ألتفت. اكتفيت بمراقبة الباب وهو يفتح ببطء، وعندما فُتح رأيت ما في الغرفة وراءه.

كانت غرفة نوم... غرفة أكبر من غرفتي، وبها سريران، وفجأة حبست أنفاسي؛ فقد كانت عند طرف أحد السريرين فتاة وحول رقبتها تلتف يدا رجل، وكان الرجل يدفعها إلى الوراء ببطء ويضغط على حنجرتها بحيث كانت الفتاة تختنق ببطء.

لم يكن في الأمر أي مجال للخطأ. ما رأيته كان واضحاً تماماً؛ فالذي كان يحدث هو جريمة قتل.

كان بوسعي أن أرى وجه الفتاة بوضوح... شعرها الذهبي المتألق، ونظرات الرعب المتألم على وجهها الجميل وهو يحتقن ببطء. ولم أكن أرى من الرجل إلاّ ظهره ويديه وندبة في الجانب الأيسر من وجهه تمتد حتى رقبته.

لقد استغرق حديثي عن ذلك الأمر بعض الوقت، ولكنه لم يستغرق -في حقيقته- سوى لحظة أو لحظتين بينما كنت أنظر مصعوقاً. ثم استدرت بسرعة لإنقاذ الفتاة...

وعلى الجدار ورائي، الجدار الذي كان ينعكس في المرآة، لم أرَ سوى خزانة فكتورية الطراز من خشب البلوط. لم يكن هناك باب مفتوح... ولا مشهد عنف. والتفتُّ إلى المرآة مرة أخرى فلم تعكس شيئاً سوى الخزانة، والخزانة فقط!

مسحت عيني بيدي، ثم ركضت نحو الخزانة وحاولت سحبها إلى الأمام، وفي تلك اللحظة دخل نيل من الباب الآخر في الممر وسألني عمّا كنت أحاول عمله.

لا بد من أنه اعتقد أنني معتوه عندما التفتُّ إليه وسألتُه إن كان يوجد باب وراء الخزانة أو لا.

قال: نعم، كان هناك باب يؤدي إلى الغرفة المجاورة.

سألته عمّنْ كان يشغلها فقال إنه شخص يدعى أولدهام، الرائد أولدهام وزوجته. وسألته إن كانت السيدة أولدهام شقراء الشعر، وعندما ردّ ببرود قائلاً إنها سمراء بدأت أدرك أنني ربما كنت أجعل من نفسي أضحوكة. استعدت رباطة جاشي وقدّمتُ تفسيراً غير مقنع، ثم نزلنا إلى الطابق الأرضي معاً. قلت لنفسي إنني تعرضت -دون شك- لنوع من الهلوسة، وأحسست بالخزي والغباء.

وعندها... عندها قال نيل: "أقدم لك أختي سيلفيا". ورأيت أمامي الوجه الجميل للفتاة التي رأيتها لتوي وهي تُخنَق حتى الموت! وقدمني إلى خطيبها، وكان رجلاً طويلاً أسمر **ذا ندبة تمتد نزولاً على خده الأيسر.**

حسناً، هذا ما جرى. وأريدك أن تفكر وتخبرني ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكاني. ها هي ذي الفتاة، الفتاة بعينها، وها هو ذا الرجل الذي رأيته يخنقها... وكانا سيتزوجان خلال شهر من الزمان.

هل كنتُ (أم لم أكن) صاحب نظرة تنبئية للمستقبل؟ هل من شأن سيلفيا أن تأتي مع زوجها لقضاء فترة هنا في المستقبل وتُعطى لهما تلك الغرفة (وهي أفضل غرفة احتياطية)؟ وهل من شأن ذلك المشهد الذي رأيته أن يحدث في الواقع؟

ما الذي كان عليّ فعله حيال هذا الأمر؟ أكان **باستطاعتي** فعل شيء؟ أكان من شأن أحد، سواء أكان نيل أم الفتاة نفسها، أن يصدقني؟

قلبت النظر في الأمر كله مرة بعد مرة في الأسبوع الذي قضيته هناك. هل أتكلم أو لا أتكلم؟ وعلى الفور -تقريباً- ظهر تعقيد آخر؛ فقد وقعتُ في حب سيلفيا كارسليك منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، ولكن ذلك كبّل يدي بطريقة ما.

ومع ذلك، إن لم أقل أي شيء، فسوف تتزوج سيلفيا تشارلز كراولي وسوف يقتلها هذا الرجل.

وهكذا، ففي اليوم الذي سبق مغادرتي، كشفت لها كل شيء. قلت إنني أظن أنها ستعتبرني رجلاً به مس من الجنون، ولكني أقسمت بأغلظ الأيمان بأنني رأيت الأمر كما أخبرتها به تماماً، وأنني شعرت بأن من واجبي أن أخبرها بتجربتي تلك إن كانت مصممة على الزواج بكراولي.

أصغت إلي بهدوء شديد. كان في عينيها شيء لم أفهمه، ولم تكن غاضبة أبداً. وعندما انتهيت شكرتني بكل جدية. وقد مضيت أكرر لها كالأبله: **لقد شاهدت ذلك...** شاهدته فعلاً.

قالت: أنا واثقة من أنك شاهدتَه ما دمت تقول هذا. إنني أصدقك.

* * *

خلاصة القول أنني رحلت دون أن أعرف إن كان ما فعلته صواباً أو حماقة، وبعد أسبوع فسخت سيلفيا خطبتها مع تشارلز كراولي.

بعد ذلك وقعت الحرب، ولم أجد متسعاً من الوقت للتفكير بأي شيء غير الحرب. وقد صادفت سيلفيا مرة أو مرتين أثناء إجازاتي ولكني كنت أتجنبها قدر الإمكان.

كنت أحبها وأريدها كثيراً، ولكني شعرت -على نحوٍ ما- بأن ذلك لن يكون لائقاً؛ فقد فسخت خطبتها مع كراولي بسببي، ولذلك بقيت أقول لنفسي إن الطريقة الوحيدة لتبرير التصرف الذي أقدمتُ عليه هي أن أجعل موقفي خالياً من أي غرض خاص أو فائدة.

وفي عام ١٩١٦ قُتل نيل وطُلب مني أن أخبر سيلفيا عن لحظاته الأخيرة في الحياة. ولم نستطع -بعدها- أن نبقي على علاقتنا رسمية هكذا. كانت سيلفيا تحب نيل كثيراً وكان هو أفضل أصدقائي. وقد تمكنتُ من إمساك لساني بصعوبة وذهبتُ متضرعاً إلى الله أن تأتيني طلقة وتنهي هذا الأمر الصعب كله؛ فقد أحسست بأن الحياة بلا سيلفيا لم تكن جديرة بأن أحياها.

ولكن القدر لم يرمِني برصاصة قاتلة؛ فقد مرت رصاصة

واحدة من تحت أذني اليمنى تقريباً، وواحدة أخرى انحرفت عندما أصابت علبة معدنية في جيبي، ولكني لم أصب بأي جرح. ثم قُتل تشارلز كراولي في معركة في بداية عام ١٩١٨.

وقد جعل ذلك الوضعَ مختلفاً إلى حدٍ ما. وهكذا عدت إلى الوطن في خريف عام ١٩١٨ قبل الهدنة بقليل، وذهبت مباشرة إلى سيلفيا وصارحتها بحبي لها. لم يكن عندي أمل كبير في أنها ستهتم بي مباشرة، وقد صُعقتُ عندما سألتني لِمَ لم أبلغها بذلك من قبل.

تلعثمت وقلت شيئاً عن كراولي فقالت: "ولكن لماذا تظنني فسخت الخطبة معه؟". ثم أخبرتني بأنها وقعت في حبي تماماً كما وقعت أنا في حبها منذ اللحظة الأولى.

قلت لها إنني ظننتُ أنها فسخت خطبتها بسبب القصة التي رويتها لها فضحكت بازدراء وقالت إن المرء عندما يحب لا يكون على هذا المستوى من الجبن، ثم استعرضنا موضوع تلك الرؤية القديمة التي رأيتها واتفقنا على أنها كانت غريبة، ولكن لا شيء أكثر من ذلك.

مرّ بعد ذلك وقت طويل ليس فيه ما يمكن إطالة الحديث عنه. فقد تزوجتُ سيلفيا وعشنا سعيدين، ولكن ما أن أصبحت سيلفيا لي حتى أدركت أنني لم أخلق لأكون زوجاً جيداً. كنت أحب سيلفيا بإخلاص، ولكني كنت غيوراً، غيوراً لحدّ السخافة حتى لمجرد ابتسامة تبتسمها لأي واحد. وكان ذلك يسليها في

البداية، بل أظنها أحبت ذلك بعض الشيء... فهذا يثبت –على الأقل– مقدار حبي لها.

أما أنا فقد أدركت تماماً، وبما لا يقبل الشك، أنني لم أكن أجعل من نفسي أضحوكة فحسب، بل كنت أعرّض راحة بالنا وسعادتنا للخطر. وأقول إنني عرفت ذلك، ولكنني لم أملك تغييره. وفي كل مرة كانت سيلفيا تتلقى فيها رسالة ولا تريني إياها كنت أتساءل عمّن أرسلها لها... وإذا ما ضحكت وتحدثت مع أي رجل كنت أجد نفسي متجهماً قلقاً.

كانت سيلفيا –في البداية– تضحك معي كما قلت، ولعلها كانت ترى في ذلك مزحة كبيرة. ثم لم تعد ترى المزحة مضحكة ممتعة، وفي النهاية لم تعد تراها مزحة أبداً.

ثم بدأت بالابتعاد عني شيئاً فشيئاً. لا أعني بالمفهوم المادي، ولكنها أخفت عني تفكيرها الداخلي. ولم أعد أعرف بماذا كانت تفكر. كانت لطيفة... ولكن على نحو حزين، كما لو كانت بعيدة جداً.

وشيئاً فشيئاً أدركت أنها لم تعد تحبني. لقد مات حبها، وكنت أنا الذي قتلته!

وكانت الخطوة التالية حتمية، ووجدت نفسي أنتظرها وأنا خائف منها.

ثم دخل ديريك وينرايت في حياتنا. كان لديه كل ما أفتقر

أنا إليه... كان صاحب عقل راجح ولسان عذب، وكان وسيماً أيضاً. وأنا مجبر على الاعتراف بأنه كان رجلاً طيباً. وحالما رأيته قلت في نفسي: هذا هو الرجل الذي يناسب سيلفيا تماماً!

وقد حاربَتْ سيلفيا ذلك. أعرف أنها قاومت، ولكني لم أساعدها، إذ لم أستطع. كنت أسيرَ تحفظي النكد، وكنت أعاني معاناة شديدة... ولم أستطع أن أمدّ إصبعاً لإنقاذ نفسي. لم أساعدها، بل جعلت الأمور أكثر سوءاً. فقد أطلقت لساني عليها ذات يوم وشتمتها شتماً قبيحاً. كنت شبه مجنون غيرة وبؤساً، وكانت الكلمات التي قلتُها قاسية جداً وغير صحيحة، وقد عرفت –وأنا أقولها– كم هي قاسية وغير صحيحة، ومع ذلك استمتعت بقولها استمتاعاً بهيمياً!

أتذكّر كيف احمرّت سيلفيا وانكمشت. لقد دفعتها إلى حافة التحمل. وأتذكّر أنها قالت: لا يمكن لهذا أن يستمر...

* * *

عندما جئتُ إلى البيت في تلك الليلة كان فارغاً... فارغاً. وكانت هناك رسالة... وفق الطريقة التقليدية تماماً.

كانت تقول فيها إنها ستتركني... إلى الأبد، وإنها ذاهبة إلى «باغويرثي» ليوم أو يومين، وبعد ذلك ستذهب إلى الشخص الوحيد الذي أحبها واحتاج إليها... وإن علي أن أفهم أن ذلك أمر نهائي.

أظن أنني لم أكن مصدقاً شكوكي حتى تلك اللحظة؛ فهذه الرسالة التي تؤكد -بما لا يقبل الشك- أسوأ مخاوفي جعلتني كالمجنون.

وهكذا ذهبت إلى باغويرثي وراءها بأسرع ما يمكن للسيارة أن تصل به. وأذكر أنها كانت قد غيرت ثوبها لتوها لتناول العشاء عندما اندفعتُ داخل الغرفة ورأيت وجهها... جميلاً... خائفاً!

قلت: "لا أحد غيري سيأخذك... لا أحد". وأمسكت رقبتها بكلتا يدي وأطبقت عليها وألقيتها إلى الوراء.

وفجأة رأيت انعكاساً لنا في المرآة... سيلفيا تختنق وأنا أخنقها، وأثر الجرح على خدي حيث مرت الرصاصة من تحت أذني اليمنى!

لا، لم أقتلها؛ فقد شلّني ذلك الكشف المفاجئ فأرخيت قبضتي وتركت سيلفيا تنزلق إلى الأرض.

ثم انهرت. وقامت هي بالترويح عني... نعم، لقد روحت عني.

أخبرتها بكل شيء، وأخبرتني هي بأن المقصود بعبارتها: "الشخص الوحيد الذي أحبها ويحتاج إليها" هو أخوها ألان. وفي تلك الليلة دخل كل منا قلب صاحبه، ولا أحسب أن أحدنا ابتعد عن الآخر منذ تلك اللحظة.

كانت تلك تجربة تهدئ من غلو المرء وهو يحملها في

حياته، ولولا رحمة الله ثم تلك المرآة لأصبح المرء قاتلاً!

وشيء آخر مات في تلك الليلة... إنه شيطان الغيرة الذي تملكني فترة طويلة!

ولكني أتساءل أحياناً. لنفترض أنني لم أرتكب ذلك الخطأ الأول... أثر الجرح على الخد **الأيسر**، بينما كان في الحقيقة على الخد **الأيمن** وعكسته المرآة... فهل سأكون -عندها- متأكداً لتلك الدرجة من أن الرجل هو تشارلز كراولي؟ هل كنت سأحذّر سيلفيا؟ هل كانت ستتزوجني... أو تتزوجه؟

أم أن الماضي والمستقبل شيء واحد؟

إنني رجل بسيط ولا أزعم أنني أفهم هذه الأمور، ولكني رأيت ما رأيته... وبسبب ما رأيته فقد أصبح كل منا، أنا وسيلفيا، ملكاً للآخر (حسب الكلمات التقليدية)... إلى أن يفرق الموت بيننا.

* * *